أسامة المسلم

خوف


خوف
رواية

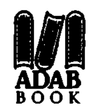
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المسلم، أسامة
خوف. / أسامة المسلم - الرياض، ١٤٣٢هـ
... ص ؛ ١٥×٢٢ سم
ردمك: ٦-١٦٧٦١-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١ - القصص العربية - السعودية أ- العنوان
ديوي ٨١٣،٠٣٩٥٣١ ١٤٣٦/٤٢٢

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٤٢٢
ردمك: ٦-١٦٧٦١-٠١-٦٠٣-٩٧٨

مصمم الغلاف: @ahmedmss



مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

الموقع الإلكتروني :
www.daapd.com
مركز الأدب العربي
@Services_Book
@Services_Book
مركز الأدب العربي
adabarabic7
services_book@outlook.sa

للتواصل:
0597777444
لجنة النشر :

المملكة العربية السعوديه- الدمام

التجهيز الفني للكتاب
مركزخدمة المؤلفين
تصميم، تسويق، طباعة، توزيع
للتواصل واتس:
مصر - 00201120102172





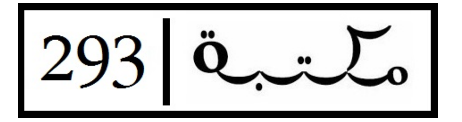
رواية

أسامة المسلم

@osamahslamuslim

@osamahalmuslim

Komontage



١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

لماذا تأخرت..؟

تذكر قبل أن تدخل ..

أنك لن تخرج ..

مقدمة

هذه الرواية أو السيرة الذاتية أو كما سنتفق لاحقًا على تصنيفها ليست لتصنيف فئة من المجتمع أو عزل فئة دون غيرها بالرغم من أن التصنيف مهم في مجتمعي وإحدى أهم أوراق الاعتماد المبدئية قبل قبول رأيك أو حتى قبول سماعه، فلا بد أن يكون لك تصنيف أو رتبة يتم على أساسها تقويم عقلك أو فكرك أو تجاربك.

ولدت في المملكة العربية السعودية في منتصف السبعينيات بعد زواج أمي وأبي بسبع سنوات، كنت مصدر فرح وبهجة لهما ولجميع العائلة وكما أخبرتني أمي أنني ولدت مبتسمًا ولم أبكِ عند ولادتي.

قبل أن أكمل سنتي الأولى سافرت معهما للولايات المتحدة الأمريكية عندما قرر أبي إكمال دراسته للحصول على درجة الماجستير، فنشأت في بيئة تختلف كليًّا عن البيئة التي سوف أعود إليها لاحقًا بعد انتهاء أبي من الدراسة.

نشأت في بيئة غربية وتعلمت اللغة الإنجليزية قبل العربية وأصبحت لغتي الأولى وعشت مثل أي طفل غربي يمارس حياته اليومية تحت ظل

أكبر دولة رأسمالية في العالم وبدأت بمرحلة الحضانة مرورًا برياض الأطفال وكنت أتناول الوجبات السريعة من ماكدونالدز وغيره من المطاعم الأمريكية الشهيرة وحظيت بزيارة لعالم ديزني الساحر وأنا ما زلت طفلًا في الرابعة من عمري ولم أدرك إلا فيما بعد أنني كنت أتسلح بأدوات فكرية ستكون لي لاحقًا في حياتي أكبر نافذة أطل بها على عالم لا يزال البعض حتى يومنا هذا يسميه عالم الكفر والفسق البغيض.

بعد مرور ما يقارب الخمسة الأعوام عدنا مع أبي إلى مسقط رأسه بعد ما أنهى دراسته وحصل على درجة الماجستير، وتوافق ذلك مع ولادة أخي الوحيد والذي حمل الجنسية الأمريكية لأنه ولد هناك.

عدت لعالم وثقافة لا أعرف عنهما شيئًا، عدت وأنا لا أجيد حتى كلمة واحدة من اللغة التي يتحدث بها من حولي، كنت كالغريب الذي أتى من كوكب آخر. كان يزج بي في المجالس للتحدث مع الناس بتلك اللغة الغريبة التي لم يسمعوها إلا من التلفاز في الأفلام والمسلسلات الغربية والتي لا يجيدها الكثير من الكبار فكان من الغريب أن يشاهدوا طفلًا في الخامسة يتحدث بها بطلاقة وكنت أتذكر بوضوح أنه كلما تحدثت كان الضحك يعم المكان ولم أكن أعرف السبب، لا أذكر ذلك تكبرًا أو غرورًا لكنه كان إحساسًا ملاصقًا لي بعدم الانتماء خاصة في الأيام الأولى من عودتي للبلاد.

كان أكثر سؤال يوجه إليَّ هو:

what is your name?

وكانت هناك نظرات استياء من بعض مرتادي تلك المجالس لأني

كنت أتحدث بلغة الكفار حسب وجهة نظرهم ولم يكونوا يخفون ذلك الاستياء بتنبيه أبي وكأني على وشك الانحراف والخروج عن الطريق المستقيم، لكن ولله الحمد أبي لم يكن من الناس الذين يحاربون ما يجهلون أو في مبادئهم يجاملون، وقد رباني على ذلك لذلك تجاهل تلك التعليقات ولم يُلقِ لها بالًا.

في غضون أشهر تعلمت العربية من خلال الممارسة والاستماع لكني لم أنسَ لغتي الأولى وكنت مشتاقًا جدًّا لسماع وممارسة تلك اللغة التي عشت معها ومن خلالها أيام طفولتي الجميلة. كانت أولى وسائل عودتي لذلك العالم الذي اشتقت إليه هي من خلال مشاهدة قناة أرامكو والتي كانت مخصصة لموظفي شركة الزيت العربية الأمريكية والتي سميت فيما بعد بشركة الزيت السعودية ARAMCO فقد كانت تُبث من الظهران في المنطقة الشرقية وموجهة للأمريكان والأجانب كنوع من العلاج لحنينهم للوطن.. كنت من ضمن من حنوا وتابعوا تلك القناة.

كانت تلك القناة نافذة أطل منها كل يوم على عالمي الذي خرجت منه دون سابق إنذار، كنت أتابعها حتى تغلق في الليل.. وكأن بعودتي من الخارج لـ «وطني» توقفت عملية تثبيت تلك الثقافة في عقلي وتم استئناف التثبيت بعد متابعتي للقناة وبرامجها المتمحورة حول ثقافتي الأولى.

لم أنجذب يومًا للثقافة المحلية ليس كرهًا لها أو تكبرًا عليها لكن كان

الأمر أشبه بالغريزة الملحة تجاه الثقافة الأخرى، تمامًا مثل الطفل الذي اكتشف بعد ما عاش وتربى عند أمه حتى وصل للخامسة من عمره أنه متبنى وأن أمه الحقيقية التي أنجبته قادمة لأخذه من أحضان أمه الأولى فبدأ بالبكاء لفراق من ربته في الصغر ليس كرهًا لأمه الحقيقية أو البايولوجية بل ارتباطًا بأمه التي ربته واحتضنته وكانت معه في خطواته الأولى في هذه الدنيا.

كانت برامج قناة أرامكو مثل ألبوم الصور لتلك الأم التي ربتني والتي انتُزعت من صدرها بعد ما ألفتها وارتبطت بها عاطفيًا وعقليًا. كنت أتصفح ذلك الألبوم كل يوم وأنا أشتاق لرؤياها حتى وإن كانت تلك الأم غير مسلمة وترتدي الصليب، لذلك لا يفهمني الكثير من الناس اليوم عندما أدافع عن أمي الأولى أو ثقافتي الأولى إن صح التعبير والتي يصفونها دائمًا بالفسق والفجور في كل مناسبة.. فمن منا يرضى أن تسب أمه أمامه ويقف ساكتًا وساكنًا وهو يسمع من يتهمها بأبشع التهم والأوصاف وإن كان بعضها صحيحًا؟ لذلك كنت أدافع عنها في الكثير من النقاشات بالرغم من الأوصاف التي أُلصقت بي لقيامي بذلك.

اليوم الذي اكتشفت فيه القراءة

تعطل التلفاز.. كنت في العاشرة من عمري تقريبًا وفي تلك اللحظة الحاسمة من حياتي أحسست بالضياع وشعرت أن بصري قد سلب مني لأني لم أكن مثل بقية الأطفال الذين يلعبون الكرة بشغف في الشارع أو يركبون دراجاتهم متنقلين من زقاق لآخر يجمعون من الحياة خبراتهم عن طريق الممارسة والاحتكاك المباشر مع أقرانهم فقد كان لي عالمي الخاص الذي تشوش وتعكر صفوه بتعطل ذلك التلفاز.

ذهبت لأبي أرجوه أن يصلح التلفاز لإعادة نافذتي الوحيدة على العالم لسابق عهدها لأني كنت في أول يومي وقد كان التلفاز بعد نهاية يومي الدراسي بمثابة الصندوق السحري الذي يقدم لي جرعات من التشويق والإثارة، والتي كنت أتوق لها دائمًا لأني لم أكن في ذلك الوقت أملك هواية أتسلى بها أو أقتل فيها وقت فراغي الذي كان وما زال إناء يفرغ بسرعة وهاجسي على الدوام ملؤه.

على الرغم من سرعة استجابته، إلا أن ظني خاب عندما علمت بعد عودة أبي في المساء أن الجهاز سيبقى ثلاثة أيام حتى يتم إصلاحه.

نما عندي فضول قوي ذلك اليوم لأشغل وقتي بشيء بديل حتى تعود نافذتي لسابق عهدها. بدأت أبحث في أرجاء المنزل لعلي أجد شيئًا يسليني خلال تلك الثلاثة الأيام الموحشة فقادني البحث للطابق العلوي من منزلنا ومن هناك توجهت إلى غرفة لم أفكر بدخولها يومًا من الأيام.. مكتبة أبي.

لا أستطيع أن أصف شعوري ذلك اليوم عندما فتحت باب المكتبة لكنه كان أقرب لمن اكتشف كنزًا مدفونًا في فناء منزله. لقد كان الكنز مجموعة من الكتب والمجلات والأشرطة والوثائق التي جمعها أبي خلال سنوات دراسته في أمريكا وكانت كلها مصفوفة في دولاب زجاجي ضخم ومرتبة بعناية شديدة وكانت طاولة القراءة مثل التي تجدها في غرف الاجتماعات يتربع فوقها مجسم للكرة الأرضية وفي مركزها كرسي متحرك من الجلد الطبيعي.

أحسستُ أن العالم بين يدي وبالرغم من أن الكتب والمجلات والأشرطة كانت كلها باللغة الإنجليزية إلا أني نهلت منها بشغف وعشقت من خلالها القراءة والاستماع لأغاني مغني الستينيات والسبعينيات مثل The Beatles وthe Bee Gees وBoney M وأنا أتصفح أول نسخة لي من مجلة Time.. كنت هناك وأنا هنا.

وجدت في تلك المكتبة البساط السحري الذي لف بي العالم بواسطة صفحات من الورق ومن خلال بعض الألحان الموسيقية التي كانت

تأخذني لثقافتي الأولى في ثوانٍ. كنت أشعر بأني محظوظ لأن معظم الأطفال في سني لم يكونوا ليستفيدوا من هذا الكنز العظيم دون اللغة التي كنت أملكها والتهيئة الثقافية والفكرية التي غرست بي والحرية التي منحت لي في تصفح تلك المكتبة.

أنهيت قراءة أول موسوعة لي في أيام وقد كنت مجرد طفل في العاشرة وأبحرت في علوم لم أكن أفهمها في ذلك الوقت لأن أبي كان يحب اقتناء الكتب في كل المجالات وكانت لديه مجموعة خاصة مقفل عليها في حقيبة دبلوماسية سوداء تمكنت من فتحها لاحقًا بعد عدة أشهر.

عاد التلفاز للمنزل بعد مضي الأيام الثلاثة ولم أعره أي انتباه كالسابق فقد وجدت ما هو أثرى وأغنى لذا أبحرت في محيطات تلك المكتبة دون توقف حتى تخرجت من المرحلة الابتدائية وفي ذلك الوقت لم أكن أجد في المناهج الدراسية جاذبية مما كان له أثر عكسي على مستوى تحصيلي العلمي.. لم أكن غبيًّا لكني لم أكن مهتمًّا.

لم تكن لي صداقات كثيرة في تلك المرحلة من حياتي ليس لأني منطوٍ لكني لم أنجذب للأطفال في عمري فموضوعاتهم كانت بعيدة بمراحل عن الموضوعات التي قد تحرك أدنى اهتمامي وكنت أرى في اهتماماتهم سطحية شديدة بالرغم من محاولاتي المتكررة للاندماج معهم، في تلك المرحلة بدأت بقراءة المؤلفات المحلية لكنها أيضًا لم تجذبني لفارق الأسلوب والقوة في الطرح عن مثيلاتها في الطرف الغربي لكن شدني

الأدب وقرأت لشوقي كثيرًا لا أعرف لماذا لكنه أكثر شاعر لفت انتباهي وجذبني لما يكتب.

مضت الأيام وعشت بعقل مختلف عن من هم حولي ليس بالضرورة أذكى لكن بالتأكيد مختلف. كانت قراءتي اليومية والمستمرة لتلك الكتب في مكتبة أبي عاملًا رئيسًا في تبلور شخصيتي وحدوث ما يشبه البلوغ المبكر لعقلي. كنت أحب تحليل الشخصيات لأن العينات كانت كثيرة ومتنوعة مِن حولي. أذكر عندما كنت في الثانية عشرة من عمري تقريبًا كنت أعاني مشكلة في المعدة وكان هذا الألم متكررًا ولم يجدِ معه علاج كل الأطباء والاستشاريين الذين أخذني إليهم أبي وبسبب قلق أمي علي وعدم تقديم الطب الحديث حلًّا لحالتي المزمنة قررت أمي الذهاب إلى «شيخ» متخصص في القراءة على الناس وبالرغم من أن أمي لم تكن لتطرق هذا الباب المجهول أو تفكر به ليس جحدًا بالقرآن وقدرته بإذن الله على شفاء الناس لكن شكًّا وعدم ثقة في ممارسي القراءة. لكنها في النهاية خضعت لضغوط أقاربها وإصرارهم وتوصياتهم العالية بحق هذا الشيخ «الفاضل».

خرجنا مع أبي بعد إلحاح أمي وتوجهنا لشخص كان يلقب بـ «الشيخ العماني» لبدء جلسات العلاج معه. كان أبي يوصلنا إلى منطقة بيوتها من طين لنقطع أنا وأمي بقية المسافة على الأقدام عبر بيوت قديمة متهالكة وقد كانت بيئة جديدة علي في ذلك الوقت. كانت شوارعها ذات

رائحة مميزة. لم أكن أعي في الزيارة الأولى وجهتنا لكن مع تكرر الزيارات كنت أتحمس للذهاب لأن تلك المنازل الطينية كانت تعجبني لسبب ما. كنا ننتظر الشيخ في غرفة صغيرة ممتلئة بالنساء والأطفال ونادرًا ما نرى رجلًا بينهم وكان هذا الانتظار يمتد لفترات طويلة في زياراتنا الأولى قبل أن تدرك أمي الآلية التي يعمل بها هذا المكان وهي «المال» فحصلنا على تصاريح مرور VIP في كل زيارة بعد إدراك أمي لهذه الآلية. كانت الأموال تتدفق في يد كل من يوصلنا إلى «الشيخ» بسرعة وفي نهاية المطاف وبعد عدة نقاط جمركية لا أجلس أمامه إلا خمس دقائق تحاول فيها أمي شرح حالتي بسرعة والقلق على وجهها وهو مغمض العينين واضعٌ يده على رأسي ويتمتم ببعض الكلمات غير المسموعة بوضوح وأنا أنظر إليه بخليط من الخوف والاستغراب وينتهي اللقاء في العادة بالبصق في وجهي وفي قارورة من الزيت أو الماء وخروجنا بسرعة وعلى عجالة وكأننا نهرب من مسرح جريمة.

استمرت زيارات أمي لـ «الشيخ» واستمرت جلسات البصق في وجهي حتى توقفت أمي فجأة عن الذهاب إليه. بصراحة لقد اعتدت على تلك الزيارات التي كانت تخرجني من المنزل. لم أكن من الأولاد الذين يسمح لهم بالخروج كثيرًا لذلك كانت تلك المواعيد «العلاجية» تغييرًا جميلًا.

بعد عدة أسابيع انقطعت زياراتنا لـ «الشيخ» فسألت أمي قائلًا:

«لماذا لم نعد نذهب للشيخ يا أمي؟»

فردت أمي برد لم أضحك عليه إلا بعد سنوات عندما كبرت

واستوعبت كلامها فقد قالت بحسرة:

«قبضت عليه الشرطة».

لم أتصور يومًا أن أمي التي كانت متعلمة وزارت أكثر من عشرين دولة حول العالم سينتهي بها المطاف إلى أخذ ابنها لرجل كي يبصق في وجهه وتدفع له مبلغًا مجزيًا مقابل ذلك.

دفعني هذا الموقف عندما استرجعته بذاكرتي يومًا للتفكير وأثار ذلك في عقلي المتحرك سؤالًا:

لماذا.. ؟

لماذا فعلت أمي ذلك؟

لماذا ذهبت لذلك الدجال الذي أغرقني بزيوته وبصاقه.. ؟

لم أجد إلا جوابًا واحدًا.. «الخوف»..

نعم إنه الخوف.. الخوف جردها من عقلها ومنطقها وجردها من كل وسائل الدفاع عن النفس. الخوف الذي كان سلاح ذلك الرجل كي يبتز الناس في أموالهم وأحيانًا أعراضهم ولم يقدر أحد على مناقشته لأنه كان يلبس عباءة أعطته كل الصلاحيات والحصانة التي يحتاجها.. الدين.

بقي هذا الموضوع في ذهني حتى بلغت العشرين من العمر وأصبح مركزًا لاهتمامي وشاغلًا لبالي وأصبحت أراقب أفراد المجتمع حولي ووضعت نظرية «الخوف» للقياس والتجربة أكثر من مرة ولم تخيب هذه

النظرية ظني قط. حاولت أن أوضح للناس بالنقاش المنطقي أن الثقة العمياء التي يهبونها لبعض المتنكرين بعباءة الدين تخالف غريزة الحذر والخوف التي هي من أساسيات البقاء عندهم لكن تأثير اللحية والثوب القصير ورائحة دهن العود كان أقوى مني ومن منطقي. مع ذلك كان لدي أمل أن أحقق تغييرًا في نمط التفكير السائد تجاه «المتمشيخين» لكن عند وصولي للمرحلة الجامعية اكتشفت أن مجتمعي يعاني من سوء فهم لمعنى الفهم.

بمعنى آخر أن هناك تقويماً سابقًا لعقل الشخص قبل أن يفتح فمه، وتقويماً لأخلاقه قبل أن يتعامل معك. لم أفهم هذا النظام ولم أقرأ عنه من قبل في أي كتاب.

تكيفت مع مجتمعي بالتمسك بمفاهيمي ومبادئي وأتقنت تجاهل من اختار أن يكون جاهلاً.

كان البعض ينتقد استشهادي بأينشتاين لأنه يهودي ويتهمني بالغباء لأني معجب بعقلية هتلر النازي وكان العرف المفروض هنا هو أن كل شيء خارج حدود جغرافية وطني لا يجوز التعامل معه إلا بازدراء وحسرة، فهم الضالون ونحن الناجون.

حتى صداقاتي مع معتنقي بعض الديانات الأخرى وأصحاب المذاهب المختلفة كان ينظرُ لها البعض على أنها خيانة عظمى للمنظمة التي ستدخل الجنة من أوسع أبوابها.

لا أنكر أني حاولت تبني هذا الفكر في فترة من فترات حياتي من باب التكيف وتجربة الجديد لكن لم أستطع لأن متطلبات عقلي كانت أكبر، اتهمت بالزندقة وازدراء الدين أكثر من مرة من قِبل عدد من المتعالمين لأسباب ليست دينية من الأساس.

بدأت بعدها أفكر حتى توصلت لقناعة خاصة بي وهي أن الأحمق مثل العاري أمام الناس وسوف يغطي ويستر نفسه بأي شيء وبأي طريقة حتى يداري حماقته فهناك من يختار الصمت وأنا أحترم هذا النوع وهناك من يختار الهجوم على شخصك كي يلتفت الناس إليك ويديروا أنظارهم عن عورته المكشوفة وهذا للأسف حال الكثير من أبناء مجتمعي الأغبياء.

البعض يخلط بين الجهل والغباء فيعتقد أن الجهل مذمة مثل الغباء ولا يدرك أننا كلنا جاهلون بشيءٍ ما بطريقة أو بأخرى ولا يعلم العلم كله إلا الله، فكلمة جاهل صفة لنقص المعرفة لكن الغباء صفة لنقص القدرة على استيعاب المعرفة وهذا أخطر.

في تلك المرحلة من عمري وفي أوج عطش عقلي للمعرفة تغير مجرى حياتي وإلى الأبد. لم أحكِ ما حدث معي لأحد لأني لم أجد تفسيرًا لتلك الأحداث يقبله أي عقل في هذا الزمن.

ولكي أكون واضحًا منذ البداية فأنا لا أنتظر القبول أو الرفض من أحد، وسوف أسرد ما مررت به لمجرد التوثيق الزمني لعل يومًا من

الأيام بعد ما أموت ينظر لما كتبته مثل ما نظر لمؤلفات من قال أول مرة إن الأرض كروية فأحرق هو ومؤلفاته ولم تظهر حقيقة ما كتب إلا بعد قرون طويلة.

ما سأذكره في الصفحات التالية من أحداث وقصص وروايات لن أطلب من أحد تصديقها ولن أدعي أنها حقيقة حفاظًا على نفسي من سوط النقد الجاهل وكذلك لن أقول إنها رواية من نسج خيالي كي لا أظلم جزءًا مهمًّا من حياتي غيّرها إلى الأبد لكن سأكتفي بالقول إنها مجرد.. . إسرائيليات.

اليوم الذي غير حياتي

كنا في زيارة لأحد الأقارب وكان المجلس مكتظًّا بالرجال من جميع الأعمار وكعادتي كنت أناقش الموضوعات الجدلية بحرارة وأصطدم مع أي رأي لا يعجبني أو يدخل عقلي وكنت أحبْ أن أسمع عبارات الثناء مِن مَن هم حولي عندما أفحم أحد المتغطرسين الذين يدعون العلم والمعرفة أمام أفراد المجلس فقط لكونهم يحظون بمكانة اجتماعية أو اقتصادية توهمهم بأنهم مخولون بالحديث في أي مجال أو موضوع.

كنت أرتوي بنظرات الفخر والإعجاب من أبي خاصة وبعض أقاربي ورواد المجلس عامة وكانت عبارات مثل «أنت سابق سنك» أو«ما شاء الله عليك أفحمتهم» هي التتويج المحبب لقلبي في كل معركة نقاشية أنتصر فيها.

لا شك أن هناك بعض العقول المتحجرة التي كانت تعشش في تلك المجالس كالغربان المسنة التي ترفض وتحرم على الطيور الصغيرة الجلوس على غصن هزيل على تلك الشجرة وتنعق في كل من يحاول الاقتراب منها والتي مهما طرقتها بسندان المنطق ومطرقة الدليل القاطع لن تنفلق

أبدًا وتعترف بجهلها لكنها تكتفي بردود وعبارات استفزازية مضحكة مثل «الحمد لله على نعمة الإسلام» أو «إحنا ما نعرف غير القرآن والسنة» وكأن الذي يتحدث معهم قد جاء للتو من حائط المبكى.

كنت متعودًا على هذا الأسلوب البائد للهروب من الحوار والنقاش العقلاني لكنني كنت أستاء من نظرات التأييد والقبول من بعض الذين كنت أحسبهم ضمن العقلاء في المجلس وكأنهم بهذا التأييد يشترون راحتهم وينجون بأنفسهم من تصنيف حتمي سوف يعزلهم عن تلك الفئة المسيطرة على مجلسنا الموقر ويجعلهم في قائمة تعرف في يومنا الحاضر «بالليبرالية» وهذا المسمى وللأسف تم استخدامه مع من ينطبق عليه ومع من لا ينطبق ناهيك عن عبارات مثل «هل ترضاها لأختك» وغيرها من الوسائل المعتادة للهروب من أي نقاش منطقي.

أكاد أجزم أن بعضكم سيتوقف عن القراءة الآن لأنه قد أصدر علي حكمًا بأني أحتقر من حولي وأنظر لهم بدونية وأحمل شعلة التحرر والانفتاح لأقود بها الناس أو على أقل تقدير فاسق أو مزدرٍ للأديان من مجرد بعض السطور مع أنني لم أتطرق للدين نهائيًا لكن تطرقت لأشخاص وهنا تكمن المشكلة الحقيقية التي أواجهها بعقلي الذي لا يريد التوقف عن التفكير فليس من طبعي تقديس الأشخاص أو وضعهم في فئة المعصومين المنزهين عن الخطأ، فأقصى ما يمكن أن يحظوا به مني هو الاحترام المتبادل والنقاش الراقي وهذا بحد ذاته حلم بعيد

المنال مع بعض المحسوبين علينا بالمفكرين والعقلاء والذين لم يتنزهوا أو يترفعوا إلا عن أبسط أبجديات أدب الحوار. ما تسمعه مني هو ليس صوت «الأنا» بل صوت «من أنتم» لتحددوا كيف أكون؟

لنعد للمجلس الذي امتلأ بدخان البخور معلنًا نهاية الجلسة ونظرة غضب من عمي عندما قلت إن إشعال البخور هو من أهم المكونات التي يستخدمها الهندوس في الكثير من مراسمهم وطقوسهم.. يجب أن أتعلم ألا أتكلم في الثوابت في المستقبل.

هممنا بالخروج وقبل وصولي لباب المجلس نادى عليّ أحد أقربائي والذي كان كبيرًا في السن وقد ناهز السبعين صيفًا من عمره. أشار لي بيده فذهبت له لأني بصراحة أفضل الحديث مع كبار السن لأن فيهم من الحكمة المعتقة التي أحب أن أحتسيها منهم قبل فراقهم لهذه الدنيا.

قال لي قريبي المسن: هل ترغب في الحديث؟

السؤال كان غريبًا لكن الإجابة كانت: نعم بالتأكيد !

فقال: ابقَ معي قليلًا حتى يخرج الناس.

جلست معه حتى رحل الناس بمن فيهم أبي الذي اصطحبه أخي بسيارته التي بدأ للتو تعلم قيادتها، لأن المنزل كان منزل ابن الرجل الذي طلب الحديث معي وهو مقيم معه منذ فترة.

خلا المكان من الناس واستأذن ابن الرجل للصعود للطابق العلوي وقال لي:

المكان مكانك خذ راحتك..

نظرت لقريبي الكهل بنظرة «هات ما عندك» فباغتني بسؤال وقال:

هل تؤمن بالعالم الآخر.. ؟

تفاجأت من سؤاله وسألته عن سبب السؤال من الأساس..

فقال سمعتك في المجلس وأنت تناقش عبد الرحمن وتقول:

«تعلقكم بالخرافات هو الذي جعلكم تفكرون بهذه الطريقة»

فقلت: نعم خرافات.. فقد كنا نناقش قصة ذلك الساحر الذي أتى للقراءة على تلك المرأة المسكينة بعد ما أقنعها بأنها ممسوسة وفي النهاية تحرش بها.

سألني وقال: وما هي الخرافة في الموضوع؟ السحر أم القراءة أم ماذا؟

فسكت.. ومن النادر أن أسكت وينعقد لساني لعجزي عن الرد..

فقلت له: كنت أقصد أمورًا أخرى..

فقال: مثل ماذا؟

فسكت مرة أخرى وأنا أحدق في عينيه اللتين تنتظران إجابتي ولم أحب الحصار الذي كنت فيه فقلت بلا تفكير:

عالم الجن والشياطين والمس فهذا الكلام تحديدًا لم يدخل عقلي.. !

فقال: هل تعرف الآية المذكورة في سورة النمل والتي تقول:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: 39 - 40]

فقلت: نعم أعرفها.. ما بها؟

فقال: من هما الشخصان اللذان يتنافسان على إحضار عرش بلقيس لنبي الله سليمان في الآية؟

فقلت: اثنان من الجن بالطبع.

فقال: هل أنت متفقه في الدين أو علم التفسير؟

فقلت له: بصراحة لا ولا رغبة لي في ذلك..

فقال: ولماذا؟

فقلت: ليس كرهًا في الدين والعياذ بالله لكن نادرًا ما أرى أو أجد من يناقشني في الموضوعات العادية بهدوء فما بالك بالدين؟

وضربت له مثالًا على ذلك وقلت:

كنت مرة أصلي العشاء في شهر رمضان المبارك وخرجت دون أن أصلي التراويح وعدت للمنزل لإحساسي بالتعب وبعد انتهاء الناس من الصلاة اجتمعت مع بعض الأصدقاء وكان أحدهم قد رآني وأنا أخرج

من المسجد قبل التراويح، وأثار ذلك الشخص الموضوع أمام الجميع بقوله:

«هداك الله على ما فعلته الليلة»

فقلت له: وما الذي فعلته؟

فقال: ارتكبت إثمًا عظيمًا!

فقلت مصدقًا لطرحه الواثق: خيرًا إن شاء الله؟

فقال: تركت صلاة الجماعة..

فقلت له: لقد صليت العشاء مع الجماعة.

فقال: أنا لا أقصد صلاة العشاء بل أقصد صلاة التراويح

فضحكت بلا شعور..

فصرخ فيّ قائلًا: أتضحك على شرع الله؟!

فقلت: لا بل أضحك على غبائك.

فغضب وقال كلامًا لا أجرؤ على إعادته وعندما حاولت إفهامه أن التراويح سنة ولا يأثم تاركها ارتفع صوته وقال:

هذا ليس بعذر!!

وبدأ بالهجوم علي والحديث معي وكأني قد خرجت من الإسلام للتو ولا أريد العودة. بصراحة لا أخفي عليك أن النقاش معه كان مرهقًا جدًّا لأنه كالحديث مع أعمى أصم. حتى عندما قلت له إن صلاة التراويح

في المنزل لا تقل أجرًا عن صلاتها في المسجد عند بعض الفقهاء، اتهمني بالزندقة ولم يبقَ على تكفيري إلا كلمة أراها قادمة في نهاية الحديث.

والمضحك المبكي في الأمر هي تلك المجموعة التي تجمهرت حوله والتي كانت تحاول تهدئته بقولها:

«اهدأ يا شيخ !»

كنت أرى نفسي في صراع فكري مع شخص لا يملك فكرًا من الأساس ومع تكرار مثل هذه الأمثلة والمصادمات العقيمة عندما يكون النقاش متعلقًا بالدين اخترت ألا أتفقه أو أتعمق فيه أكثر من حاجتي كمسلم عادي لأن حريتي في قول رأيي مسلوبة منذ البداية ولن أستطيع الكلام دون أن أمر في حقلٍ من الألغام ما أنزل الله به من سلطان.

فسكت الرجل لثوانٍ وهو يحدق فيّ ثم قال:

هل أفهم من ذلك أنك تنكر وجود الجن؟

فقلت له: لا تتذاكَ علي فلو أنكرت الجن ستقول إني أنكرت القرآن وسينتهي النقاش بتكفيري.

فقال: لا لن أفعل ذلك..

فقلت: ثم إني ذكرت لك أن من كانا يتنافسان على إحضار عرش بلقيس لنبي الله سليمان هما من الجن فكيف أُنكرهم؟

فرد علي بكلامٍ حوّل محور الحديث معه وغير حياتي للأبد..

قال: لكن الشخص الذي قال لنبي الله سليمان: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» لم يكن من الجن..

فسكتُّ باستغراب.. ثم قلت:

كيف لا يكون من الجن؟ ماذا يكون إذًا؟

قال: رجل مثلي ومثلك لكنه أوتي علم الكتاب.

فقلت له: وما هو علم الكتاب هذا الذي أعطى بشرًا القدرة على التفوق على الجن وإحضارعرش بلقيس قبل أن يرتد طرف نبي الله سليمان إليه؟

قال: اختلف المفسرون في تفسير المعنى لكنهم اتفقوا أنه رجل ذو قدرة وعلم يفوق الجن والبشر ومصدر قدرته كان علم الكتاب. و البعض الآخر فسرها على أن الرجل هو نفسه نبي الله سليمان وكان الحوار بينه وبين ذلك الجني.

نظرت له وقلت: هل هذا التفسير من عندك أم متفق عليه؟

فقال: أغلب المفسرين فسرها بذلك.

فقلت: ماذا تحاول أن تقول؟

فقال وهو يبتسم: هناك عالم آخر.. عالم لا يعرف عنه الكثير من الناس عالم غامض من الجن والشياطين والسحرة وأبعاد أخرى تعيش حولنا وبيننا وأمور كثيرة ينكرها الناس إما خوفًا منها أو جهلًا بها أو كليهما.

فقلت له: لكني لا أصدقك وأنا نادرًا ما أنفي شيئًا قبل التقصي عنه لكن ما تقوله جنون.

فقال: هل تريد إثباتًا؟

فقلت وأنا أبتسم: وماذا ستفعل؟

قال: سأجعلك تراهم بعينك وتسمعهم بأذنك.

فضحكت وقلت: وأخيرًا شخص يعرض عليّ دليلًا ملموسًا تفضل هات ما عندك.

فقال: هل أنت واثق من كلامك؟.. هل تريد فعلًا أن تدخل إلى هذا العالم؟

فقلت باستهزاء: بل أتوق لذلك!

فنهض وقال: حسنًا.. انتظرني هنا.

ذهب قريبي الكهل لغرفته ثم عاد وفي يده كتاب ووضعه في يدي وقال:

تذكر أن هذا كان قرارك..

أخذت الكتاب وودعت قريبي وشكرته على حسن ضيافته وخلال مصافحتي له وقبل أن أترك يده شد على يدي بقوة وقال:

تذكر أنك أنت من اختار..

فتبسمت في وجهه ابتسامة خالطها القلق لأن وجهه كان مقلقًا وكأنه نادمٌ على إعطائي الكتاب. ركبت سيارتي متوجهًا للمنزل وأنا أفكر في

كلام قريبي العجوز وفي كلمة (علم الكتاب) تحديدًا وكنت أقول في نفسي:

«هل يمكن لقراءة كتاب أو كتابين أو حتى بضعة كتب أن تجعل أحد البشر متفوقًا على أحد أبناء الجن؟»

وخلال هذا التفكير والعصف الذهني بدأت أسترجع بعض ذكرياتي المحدودة عن قريبي العجوز، تذكرت أنه كان رجلًا منطويًا وغير اجتماعي وقليل الكلام ونادرًا ما يناقش ويشارك في الحوارات التي ترمى في المجلس من وقت لآخر لكنه إذا تكلم وقرر المشاركة أفحم وأسكت الحضور وتذكرت أيضًا أنه فقد أحد أبنائه في حادث مروري وأنه أيضًا كان يتعالج لفترة طويلة في الداخل والخارج، لم أتذكر المرض الذي كان يعاني منه وقتها لكنه انتقل بعدها للعيش مع ابنه الأكبر بعد ما توفيت زوجته قبل سنوات قليلة ماضية.

دخلت المنزل وتوجهت لغرفتي مباشرةً وكنت مرهقًا جدًّا من يومي الطويل فرميت الكتاب على الطاولة وجسدي على السرير وغصت في نوم عميق، استيقظت في الصباح ودخلت في الروتين اليومي من استعداد للذهاب للجامعة وممارسة كل ما اعتدت القيام به من زيارات مسائية لأصحابي وبعض المناسبات العارضة ونسيت أمر الكتاب الذي أعطاني إياه قريبي العجوز لمدة تجاوزت الشهر.

الليلة المشؤومة

عدت ذات ليلة متأخرًا للمنزل بعد سهرة مطولة مع أصحابي لكن النوم قد جافاني تلك الليلة ولم أستطع النوم بالرغم من محاولاتي العديدة، لمحت الكتاب الملقى على الطاولة منذ أكثر من شهر وقد جمع على غلافه غير المعنون بعض الغبار توجهت للكتاب وقربته من شفتيّ ونفخت عنه أثر نسياني له. استلقيت على سريري وبدأت بتصفحه بدافع الملل لا الاهتمام، لم يكن للكتاب اسم مؤلف أو فهرس أو دار نشر أو حتى ترقيم للصفحات كان الكتاب غريبًا بلا عنوان على غلافه أو داخله ومحتواه كان يبدو كالمدونة وكان الورق مائلًا للصفرة وأطرافه مهترئة.

فتحت الكتاب من المنتصف وبدأت أتصفحه ولم أفهم شيئًا مما كان مكتوبًا فيه. لم يكن للكلام المدون على صفحاته معنىً يشد انتباهي، حاولت القراءة بتمعن وتركيز أكثر، لكن الكتاب بدا لي عاديًّا جدًّا فقد كان يتكلم عن الروحانيات والعالم الآخر وأمور كنت أراها في ذلك الوقت سخيفة ومجرد خيال لا أكثر فلم أكمل الكتاب ورميته على المنضدة التي كانت بجانبي وذهبت للنوم مباشرةً. حلمت في تلك الليلة بشخص

ذي لحية بيضاء يلبس ثوبًا أبيضَ قصيرًا بلا جيوب وطاقيةً بيضاء صغيرة بالكاد تغطي رأسه وكان يقول لي:

«أكمل ما بدأت!!»

وأخذ يكررها حتى استيقظت من النوم بأنفاس ثقيلة ومتسارعة بالرغم من أني لم أجزع لتلك الدرجة وكان ذلك حوالي الساعة الثانية صباحًا. لا أذكر لماذا لكن عيني وقعت على الكتاب وبالرغم من أن الكتاب لم يكن يحتوي على صور شعرت بحاجة ورغبة ملحة للبحث فيه عن ذلك الرجل الذي عكر صفو منامي ففتحت الكتاب ولم أقرأ كل الصفحات بل تصفحت فيها كالمجلة حتى غلبني النعاس ولم أعد أستطيع تمييز الكلمات وعدت للفراش ونمت مرة أخرى. زارني الشخص نفسه في المنام بعد أن غفوت بدقائق لكنه هذه المرة بدا غاضبًا ووجهه كان متجهمًا وأقرب لوجهي من ذي قبل وصرخ بي قائلًا:

«أكمل!»

استيقظت مفزوعًا هذه المرة وتوجهت لباب الغرفة ومنها نزولًا للطابق السفلي بسرعة متوجهًا للخارج نحو سيارتي وحاولت تشغيلها بسرعة كي أبتعد عن المنزل لإضاعة الوقت حتى الصباح لكن السيارة لم تعمل ولم أربط بينها وبين ما حدث في الحلم في ذلك الوقت وعدت لغرفتي بتردد.

صعدت السلالم ببطء ونظري موجه نحو باب غرفتي وبدأت أشكك

في ما إذا كان باب غرفتي مفتوحًا عندما رحلت أو أغلقته، بدأت بالقلق والتفكير بأمور جانبية، كان تركيزي مشتتًا بسبب الخوف الذي اعتراني، دخلت الغرفة مرة أخرى ووجهت نظري للكتاب وقلت في نفسي:

«سأقرؤه كاملًا هذه المرة..»

أمسكت الكتاب وقرأته من الغلاف للغلاف وبعد ما انتهيت من الكتاب وضعته جانبًا وأخذت نفسًا عميقًا وقلت في نفسي:

«لم أفهم شيئًا.»

كان الكتاب مكتوبًا بلغة مبسطة وأحيانًا بلغة أقرب للقصائد المبتورة لكن آخر سطر فيه كان السطر الوحيد الذي لفت انتباهي وحيرني قليلًا، كان السطر الأخير يقول:

«لن ترى العالم الذي تعيش فيه بعد اليوم كالسابق لأنني سأكون معك..»

لم تعنِ لي تلك العبارة شيئًا في ذلك الوقت لكنها كانت أوضح من غيرها مما ذكر في الكتاب وأحسست بعد قراءتها بمشاعر متناقضة لا أستطيع وصفها، كانت أشبه بخليط من القلق والضيق من المجهول، وضعت الكتاب جانبًا وعدت للنوم وحاولت نسيان ما حدث.

استيقظت على صوت أذان الفجر الذي كان مريحًا ومهدئًا لي فنهضت من فراشي وذهبت لدورة المياه للوضوء كي أدرك الصلاة، لم أكن في

العادة محافظًا على صلاة الفجر لكن سماعي للأذان بعد ما مررت به تلك الليلة أزال الخوف من صدري وجعلني راغبًا بالذهاب للمسجد. كانت عيناي شبه مغلقتين تبحثان عن مقبض باب الحمام وكنت لا أزال أسمع صوت الأذان بوضوح لكن بعد دخولي للحمام وإغلاقي للباب بقليل وفي منتصف الوضوء تحديدًا انتبهت أن الصوت الذي كنت أسمعه لم يكن آتيًا من الخارج بل كان من داخل غرفتي فنظرت للساعة ووجدت أن صلاة الفجر قد انتهت منذ ١٠ دقائق، قطعت وضوئي ووقفت في دورة المياه مفزوعًا حتى انتهى الأذان القادم من غرفتي وقبل أن أفكر بمسك المقبض لفتح الباب سمعت صوتًا آخر يقول:

«أقم الصلاة!»

كبر صاحب الصوت وبدأ بالقراءة بصوت جهوري خالٍ من الجمال، جلست على طرف المرحاض وأنا أسمع صلاة الفجر تقام في غرفتي وزاد فزعي عندما وصل القارئ لـ:»ولا الضالين..»

فرد بعدها معه صوت مجموعة بقول: «آمين».

أكمل من كان أو كانوا في غرفتي صلاتهم ولم أقوَ على الخروج من دورة المياه وبقيت فيها قرابة الساعة، خرجت من دورة المياه بعد ما تمكنت الشمس من السماء واقترب موعد محاضرتي الأولى، ذهبت وتجهزت مثل أي صباح وخرجت بعدها من المنزل متوجهًا للجامعة، ركبت سيارتي ودار المحرك بسلاسة ولم يخطر ببالي أن العطل الذي أصابها البارحة كان

مصادفة أو غيرها فقد كنت مشوش الذهن وتوجهت مباشرة للجامعة حتى نهاية اليوم.

عدت قبل المغرب بقليل لأني لم أرجع مباشرة ذلك اليوم للمنزل وعندما دخلت غرفتي تذكرت ما حدث معي بالأمس وضاق صدري قليلًا ولكني تجاهلت الأمر.

عندما أصبحت الساعة التاسعة قررت الخروج من المنزل كعادتي اليومية فتوجهت لدورة المياه للاستحمام وبعد دخولي للحمام بلحظات سمعت صوتًا لن أنساه، سمعت صوت طفل صغير يبكي والصوت كان قادمًا من غرفتي وفي هذه اللحظة فقط أيقنت أن ذلك الكتاب قد فتح لي باب شر والمسألة ليست مجرد أوهام. توقف صوت البكاء بعد دقيقة أو أكثر بقليل وخرجت مسرعًا من دورة المياه ومن الغرفة متوجهًا لسيارتي وأدرت المحرك وأنا أقول في نفسي:

«ما الذي يحدث.. ؟»

كنت في طريقي لأصدقائي الذين اعتدت أن ألقاهم كل ليلة لكني وجدت نفسي أتوجه لمنزل قريبي الذي أعطاني الكتاب.

طرقت الباب ففتح لي ابنه فسألت عن والده فقال لي:

«إنه نائم..»

فأخبرته أن يوقظه لأمرٍ طارئٍ ويجب عليّ مقابلته. وافق الابن على مضض ودعاني لدخول المجلس وطلب مني الانتظار حتى يوقظ أباه.

دخل علي قريبي والنوم ما زال في عينيه وقال لي:

«ماذا تريد؟!»

حكيت له ما حدث لي من أول يوم حتى لحظة قدومي عنده فرد عليّ ببرود غريب وقال:

«لكن ما تقوله مجرد خرافات..»

فأقسمت له أن هذا ما حدث معي.

فقال: وما الذي تريده مني الآن؟

فأخبرته أني أريد تفسيرًا لما يحدث لأن هذه الأمور لم تحدث إلا بعد قراءتي للكتاب الذي قدمه لي.

فقال: أنا لم أنم في مثل هذا الوقت منذ ٤٠ عامًا واليوم ولأول مرة أنام كالحجر أنا آسف يا ابني لكنك الآن ستعيش مع من عاشوا معي كل تلك السنين.

فصرخت في وجهه وقلت: من تقصد؟!.

فقال: لا أقصد أحدًا.

ثم قام وتركني وحدي في المجلس..

خرجت وأنا مشوش ومرتبك وخائف من العودة للمنزل فاتصلت بأهلي وقلت لهم:

«أنا لن أعود الليلة وسأقضي الليلة عند أحد أصدقائي».

توجهت لأقرب فندق وبت تلك الليلة هناك. وفي الصباح عدت للمنزل لأخذ مذكراتي والذهاب للجامعة فوجدت غرفتي مقلوبةً رأسًا

على عقب وفي فوضى عارمة وعندما سألت أهلي عن سبب تلك الفوضى قالوا:

«لم يدخلها أحد منذ رحيلك بالأمس»

وقفت أشاهد فوضى الغرفة وأنا أتذكر كلام الكهل ليلة البارحة وأتذكر نظرة الراحة في عينيه للتخلص من هم ومعاناة عانى منهما سنين طويلة.

بقيت أرتب الغرفة ولم أذهب للجامعة ذلك اليوم لم ينكسر شيء لكن أغلب حاجياتي كانت مقلوبة أو ملقاة على الأرض وعندما انتهيت لمحت ذلك الكتاب على الأرض فأخذته وبدأت أقلب صفحاته لكن هذه المرة ولسبب لا أعرفه بدأت أفهم الكلمات وأفهم المعاني وأربطها بعضها ببعض فجلست أقرأ فيه بشغف حتى الظهر وبعد انتهائي من القراءة أدركت وقتها فقط ما الذي حدث لي فقد كان ذلك مذكورًا في إحدى صفحات الكتاب.

ذكرت إحدى الصفحات أن من يقرأ هذا الكتاب سيرتبط ولم يذكر بماذا لكنه ذكر أن الرابط لن يفك إلا عندما يقرأ شخص آخر الكتاب وهو يريد ذلك بقناعة تامة. فأدركت أن الشيء الذي ارتبط بي هو الذي جعل ذلك العجوز لا ينام طيلة تلك السنين. قلّبت في الكتاب بحثًا عن وسيلة أخرى لفك الرابط لكنني لم أجد شيئًا بين تلك الصفحات المهترئة. عدت في تلك الليلة لقريبي العجوز وجلست معه بالرغم من رفضه في

البداية مقابلتي لكني أصررت على ابنه بأن يقنعه بمقابلتي وعندما خضع لإصراري وجلست للحديث معه أكد لي كل استنتاجاتي فقلت له:

لماذا فعلت بي ذلك؟

قال: الخيار كان لك وأنا لم أجبرك على شيء.

فسألته عن ما إذا كان هناك طريقة للتخلص منهم دون أن ألقي بهم على غيري.

فقال: لقد بحثت سنين طويلة ولم أجد حلًّا لتلك المشكلة..

فاقترحت عليه الرقية كحل لهذه المشكلة.

فقال: جرب فالله قادر على كل شيء.

سكتنا لدقائق ثم استأذنت بالخروج وقبل أن أخرج قال لي:

«جرب القرين..»

فقلت: وما القرين؟

فقال لي: شيطان ملازم لك منذ ولادتك وليس له قوة عليك أو سلطان غير الوسوسة لكن لو أطلقته فقد يطرد كل من حولك من الجن.

فقلت له بسخرية: ولَمِ لم تجرب أنت؟

فقال: قرأت في أكثر من كتاب عنه وعن وحشيته عندما يطلق ويتحرر من صاحبه ففضلت أن أبقى مع من معي خاصة وأني في وقتها بدأت أعتاد وجودهم.

فقلت له: كيف أحرره؟

قال لي: هل أنت واثق من طلبك؟

قلت له: وهل لدي خيار آخر؟

فقال: انتظر هنا قليلًا وسأعود لك.

غاب الكهل مدة ليست بالقليلة وجلست أنتظره وأنا أقلب ذلك الكتاب الذي فتح عليّ أبواب جهنم ثم عاد بعدها وأعطاني كتابًا آخر وقال لي:

«لا أنصحك بقراءته فأنا لم أجرؤ على ذلك لكن أنت حر في ما تفعل»

فأخذت الكتاب منه وقلت: حسبي الله ونعم الوكيل..

توجهت للمنزل وأنا أفكر في كلامه وفي الكتاب الأول والكتاب الثاني حتى وصلت. ذهبت لغرفتي ولم أفتح الكتاب الثاني وتوجهت للفراش مباشرة وبعد ما غفوت بقليل استيقظت على صوت يشبه الصفير الخافت في أذني فقمت مفزوعًا وانقطع الصوت مباشرةً. حاولت أن أعود للنوم بعدها ولم أستطع وبعد ساعة من المحاولات المتكررة تمكنت من العودة للنوم واستيقظت على صوت آخر يشبه فحيح الأفعى قادمٍ من تحت سريري وبالطريقة نفسها انقطع الصوت عندما استيقظت. عدت للنوم مرة أخرى ومرة أخرى استيقظت على صوت لم أعد بعده للنوم. كان صوت ضحكات عالية آتية من الحمام ولم ينقطع الصوت

حتى بعد استيقاظي ولأني كنت شابًّا في بداية العشرينيات من عمري لم أكن حافظًا للأذكار كلها ولم أكن أقرأ القرآن بكثرة فلم يخطر هذا الشيء ببالي في ذلك الوقت فبقيت في الفراش أحتضن وسادتي مفزوعًا وعيناي تراقبان باب الحمام حتى توقف الضحك.

خرجت من الغرفة بعد توقف الضحك مباشرةً وتوجهت للطابق السفلي فوجدت أخي الأصغر واقفًا في منتصف المطبخ ينظر لي وهو يبتسم فكلمته ولم يرد علي فاقتربت منه ووضعت يدي على كتفه فصعقت بشيء أشبه بالكهرباء وسقطت على الأرض ولم أستيقظ إلا على صوت والدي في الصباح وهو يقول: «قم!»

توجهت مسرعًا لغرفتي فلحقني والدي وفي عينيه خوف من الوضع الذي وجدني عليه وأنا أقول له:

«لا تهتم لا تهتم..»

أخذت الكتاب الثاني وخرجت لفناء المنزل وجلست في الحديقة وفتحت الكتاب وقبل أن أقرأ حرفًا منه نادتني أمي وقالت:

ألن تذهب للجامعة اليوم؟

فقلت لها بصوت عالٍ: لا!!

وهذه المرة الأولى التي أكلمها فيها بهذه الطريقة فأنا لست حاد المزاج بطبعي وأمي كانت الشخص الوحيد في حياتي الذي لا أستطيع أن أعارض لها كلامًا مهما طلبت أو أرفع صوتي عليها لكن هذه المرة

كان عقلي ليس في مكانه بسبب الخوف الذي اعتراني. ذهبت أمي ولم ترد علي وبالرغم من تأنيب ضميري وندمي في اللحظة نفسها إلا أني لم أستطع اللحاق بها والاعتذار منها لأن ذهني كان مشغولًا بالبحث عن حل لما كنت فيه كنت أشبه بالمدمن الذي يبحث عن جرعة تُوقف ألمه الذي يقطع أوصاله.

فتحت الكتاب على عجالة وكان كسابقه بلا فهرس أو أرقام صفحات أو دار نشر وغيرها لكن عدد صفحاته كان أقل وغلافه أسود كان الكتاب مكتوبًا بصيغة غريبة كان يخاطبني وكأنه يعرفني وكان يتحدث عن قريني وكأنه أخ لي والصاحب الذي يتوق للقائي وعندما وصلت لصفحة التحضير وجدت في أعلى الصفحة كلمة شذت عن بقية كلمات الكتاب. كانت تلك الكلمة هي الوحيدة في الكتاب المكتوبة بخط اليد وكانت تقول: (دجن)

لم أعرها في ذلك الوقت أي انتباه بالرغم من أنها لفتت نظري وأكملت القراءة وكانت الطريقة المذكورة في الكتاب لتحضير قريني تستلزم غياب الشمس كأحد عناصر التحضير فانتظرت حتى غابت الشمس وتوجهت بعدها مباشرة لغرفتي ثم لدورة المياه وأغلقت الباب لأني كنت أحتاج المرآة أيضًا كأحد عناصر التحضير كما قال الكتاب ونفذت بالحرف ما كان مكتوبًا في صفحة التحضير وكانت العملية متعبةً ومرهقة لكن بعد الانتهاء منها لم يحدث شيء.

خرجتُ من الحمام وكان الهدوء يعم الغرفة بشكل غير مسبوق فشعرت بالخوف لأن الهدوء كان على غير العادة حتى صوت الشارع الذي اعتدت أن أسمع من خلاله أصوات الجيران والمارة والسيارات لم أكن أسمعه. لم أسمع سوى أنفاسي وضربات قلبي وصوت ريقي الذي ابتلعته من التوتر. ذهبت للفراش بعدها ونمت بلا إزعاج تلك الليلة. في الليلة التالية توقعت أنني سوف أواجه ذلك الإزعاج والتحرش الذي كان يبدأ بمجرد خلودي للفراش لكن وللمرة الثانية لم يحدث شيء. كان الجو هادئًا والسكينة تعم المكان وتكرر ذلك في الليلة الثالثة أيضًا واستمر الحال على ذلك لمدة شهر حتى نسيت الموضوع من الأساس.

تذكرت الأحداث في لحظة عندما بلغنا خبر وفاة قريبي المسن الذي أعطاني الكتابين.. بصراحة لم أحزن عليه كثيرًا..

ذهبنا للمقبرة لدفنه وكنت حاقدًا عليه كثيرًا لما فعله بي لدرجة أني لم أدعُ له بالمغفرة خلال صلاة الميت. لكني سامحته ودعوت له بالمغفرة عندما رأيت جثمانه ينزل إلى الأرض ملفوفًا بقطعة من القماش الأبيض.

عندما بدأنا نواريه الثرى اصطدم كتفي بكتف رجل غريب الشكل نظر لي نظرة غريبة وابتسم لي ابتسامة أغرب.

بدأ الناس بالرحيل وكان الوقت عصرًا فتوجهت مع والدي للسيارة وقبل أن أركب سمعت نداء خلفي يقول: «انتظر.. انتظر»

فنظرت باتجاه الصوت فإذا به ذلك الغريب الذي صادفته عند القبر. كان يلوح بيده لي بالانتظار وهو يهرول باتجاهي وعلى وجهه تلك الابتسامة الغريبة.. أتذكر بوضوح ابتسامته الصفراء وعينيه الواسعتين وشماغه الذي لم أرَ مثله من قبل في حياتي فقد كانت تبدو عليه علامات زمن آخر غير الذي نعيش فيه وعلامات أخرى لم أستطع تفسيرها. عندما وصل الرجل عندي ووقف أمامي ووضع يده التي ما زالت تحمل بعض تراب القبر على كتفي ونظر في عيني مبتسماً وقال:

«عظم الله أجرك في المرحوم !»

نظرت له باستغراب ولم أرد عليه وظللت أنظر إليه وأحدق في عينيه اللتين امتلأتا بالعروق الحمراء المتشعبة في بياض عينه المصفر ولم أستطع التوقف عن التمعن في شكله الغريب. لقد كان أسمر البشرة بدرجة حالكة لكن ملامحه لم تكن كبقية من يملكون تلك الدرجة من السمار فقد كان أنفه مسلولًا كالسيف وشفتاه صغيرتين ولم يكن يملك شاربًا أو لحية وكانت رائحة عطره خانقة. أتذكر أن رائحته كانت نفاذة كالخل لكنها كانت أشبه برائحة الريحان. ظللت أحدق في ذلك الرجل حتى أنزل يده من على كتفي الذي تلوث بتراب القبر وابتسم وقال:

«أشوفك الليلة !».

ثم أدار ظهره ورحل..

وقفت بجانب السيارة والباب نصف مفتوح وإحدى قدميّ في السيارة والأخرى ارتكزت في الشارع كي أرفع رأسي لأنظر إلى ذلك

الرجل وهو راحل. لاحظت أنه عاد للمقبرة ولم يتجه للشارع أو لسيارة وخلال نظري له صرخ أبي وقال: «يلا»

ركبت السيارة وسألت أبي عن ذلك الشخص وقلت له:

من هذا الرجل يا أبي؟

فقال لي إنه لا يعرفه ولم يرَه من قبل لكنه قد يكون صديقًا للمرحوم فقد كان يسافر كثيرًا لبلدان كثيرة وبعيدة عندما كان يبحث عن علاج للمرض الذي أصابه.

فقلت لأبي: من ماذا كان يعاني قريبنا قبل وفاته؟

قال أبي: هل سنبقى تحت حر الشمس كثيرًا؟ شغل السيارة وتحرك وسأحكي لك في الطريق.

أدرت محرك السيارة وعيني على بوابة المقبرة رغبةً مني بإلقاء نظرة على ذلك الرجل الغريب لكني لم أجد له أثرًا عند مروري من أمامها. فتحت الحوار مع أبي بسؤاله:

«ما الذي كان يعاني منه قريبنا؟»

قال أبي: بصراحة لم تربطني به علاقة وثيقة لكن كل ما أعرفه عنه أنه كان رجلًا عصاميًا بنى نفسه بنفسه وكان متفوقًا في دراسته وكان يعمل في وظيفة حكومية حتى زواجه ثم قرر فجأة تقديم اسقالته والخوض في التجارة.

فقاطعت أبي وقلت: وهل فشل فيها؟

أبي: بالعكس تمامًا.. لقد نجحت تجارته في وقت قياسي وأصبح من الميسورين، وكان في وقت من الأوقات أثرى أثرياء الأسرة.

فقلت: لكن منزلهم الحالي لا يدل على ثرائهم.. بل إنه مقيم مع ابنه ولا يملك منزله الخاص.

أبي: دعني أكمل ولا تقاطعني..

فقلت: عذرًا.. تفضل يا أبي

قال أبي إن قريبنا في قمة نجاحه وثروته قرر فتح فروع لتجارته في بعض البلدان الخليجية وبدأ بالفعل في تأسيس تلك الفروع والإشراف عليها من وقت لآخر بالسفر وحده أو بصحبة زوجته وأطفاله أحيانًا. وفي إحدى تلك السفرات التي كان فيها وحده وحسب ما أخبرت به زوجته فيما بعد أنه عاد متغير الطباع وأصبح متوترًا وحاد المزاج وبدأ يهمل تجارته ولم يعد يخرج من المنزل كالسابق ومع مرور الوقت بدأت أعماله التجارية بالانهيار لولا أن زوجته حصلت على توكيل منه وقامت ببيع كل أصول ثروته ولحقت ما استطاعت من الأموال.

توقفنا في تلك اللحظة عند إشارة ضوئية فالتفت نحو أبي وقلت:

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

قال أبي: بقي على حاله بل زادت حالته سوءًا وكان يختفي لفترات طويلة ويعود فجأة ولا يذكر لأحد عن المكان الذي كان فيه أو ما حدث له. كبر أبناؤه وتقبلوا فكرة أن أباهم قد فقد عقله وخلال تلك السنوات صرفت زوجته أموالًا كثيرة في محاولة منها لعلاجه لكنها لم تجنِ سوى

الإفلاس والديون. ولم تخرج من تلك الثروة إلا بذلك المنزل الذي تزوج فيه ابنه.

اشتعل ضوء الإشارة الخضراء ولم أنتبه إلا من أصوات منبهات السيارات التي خلفي فتحركت بسرعة وقلت لأبي:

«وما قصة موت أحد أبنائه؟»

قال أبي: في إحدى المرات التي غاب فيها قريبنا عن المنزل جاء اتصال لمنزلهم وأخبرهم المتصل أن أباهم موجود في دولة خليجية ويريدون منهم الحضور لاستلامه فخرج ابنه الكبير وحجز تذكرة لتلك الدولة وبعد سفره بساعات دخل أبوهم عليهم في المنزل وكعادته كان سارحًا وفي حالة يرثى لها وأنكر وجوده في تلك الدولة وذهب لغرفته بكل برود وأغلق على نفسه الباب. فقلت لأبي:

«وماذا عن ابنه؟»

قال: اتصل من تلك الدولة وقال لهم إنه لم يجد أباه وإن الذين اتصلوا بهم قالوا إنه رحل فجأة فأخبرته أمه بأن أباه موجود في المنزل منذ البارحة. أخبرهم الابن بعدم السماح له بالخروج حتى يعود لأنه يريد إخبارهم بشيء مهم. فقلت لأبي:

«وماذا قال لهم عندما عاد؟»

قال أبي: لم يلحق لأنه مات في حادث مروري وهو قادم من المطار.

فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.. وماذا حدث بعد ذلك؟

قال أبي: لا شيء.. بقي الرجل مع زوجته وابنه الثاني في ذلك المنزل حتى كبر الابن وتزوج وتوفيت الأم بعد زواج ابنها ببضعة أعوام.

عدت للمنزل وأنا أفكر في كلام أبي عن قريبنا وفي صورة ذلك الرجل الغريب التي لم تفارق خيالي ولا أعرف لماذا، لكني وبمجرد وصولنا ودخولنا للمنزل بحثت عن كتاب القرين وعندما وجدته فتحته وقرأته مرة أخرى وانتبهت لكلمة (دجن) المكتوبة في صفحة التحضير بخط مختلف ولم تقدني لشيء فوضعت الكتاب وخرجت كعادتي في التاسعة مساءً للقاء أصحابي.

في منتصف الطريق تعطلت السيارة وتوقفت ولم أعرف ما بها فنزلت وفتحت الغطاء لأتفحصها لعلي أجد سببًا لذلك العطل وإذا بصوت يأتي من خلفي ويقول:

«سلامات.. سلامات.. عسى ما شر؟!»

فنظرت خلفي وإذا به ذلك الشخص الغريب الذي رأيته في المقبرة فجف ريقي وبدأ قلبي بالخفقان وقال لي وهو يبتسم:

«تبي أساعدك في شيء؟»

فقلت بصوت منخفض:

لا، وشكرًا.. يمكنك الرحيل..

فذهبت الابتسامة من على وجهه وبدا عليه الغضب وقال لي بنبرة حادة:

«من هو أنت عشان تأمرني؟!!»

فنظرت له باستغراب وتعجب وقال بالنبرة نفسها:

«رح لربعك ولا تتأخر عليهم!!»

رحل الرجل ماشيًا على قدميه ووقفت بعدها متسمرًا لفترة من الزمن أنظر له وهو يرحل حتى غاب عن ناظري. جلست في السيارة وأمسكت المقود ولم أتحرك لفترة ليست بالقصيرة. كنت خائفًا من تشغيل السيارة ولم أعرف لماذا لكني في النهاية جربت إدارة المحرك كمحاولة أخيرة والذي دار فجأة.

دخلت على أصدقائي قبل اكتمال الساعة العاشرة مساءً بخمس دقائق وعلى غير عادتي كنت هادئًا وقليل الكلام والمشاركة في الحديث وكان بعض أصحابي يلعبون الورق وخلال لعبهم التفت إليّ أحدهم وقال:

«في واحد سأل عنك قبل ما تجي..»

فقلت له: مَنْ؟

سألته وأنا قلبي يخبرني بأنه ذلك الشخص الغريب الذي صادفته في المقبرة وعند تعطل سيارتي وكان ظني في محله فقد أخبرني أصدقائي بأن شخصًا غريب الشكل والثياب طرق عليهم الباب وعندما فتحوا له سأل عني بالاسم فأخبروه أني في الطريق وطلبوا منه الدخول لانتظاري.لكنه رفض دعوتهم ورحل وهو يقول:

«أنا أصلًا بشوفه الليلة..»

كان أصدقائي يخبرونني بذلك وهم يضحكون عليه ويستهزئون بشكله ولبسه ويسألونني قائلين:

«من وين تعرف هالأشكال؟!»

وكنت أبتسم مجاملة لهم وأنا في قلبي خوف من هذا الرجل وظهوره المفاجئ في حياتي وسؤاله عني بهذا الشكل الغريب وهو يعلم أني كنت بجانب سيارتي المعطلة.

في نهاية الليلة وكالعادة توجهت للمنزل وعدت لغرفتي واستلقيت على فراشي وقبل أن أغفو سمعت صوتًا قريبًا مني. كان الصوت أشبه بصوت شيء يتحرك على الأرض ومع أن المكان كان مظلمًا لكني أحسست أن هناك من يراقبني أو يجلس أمامي.

أغلقت عينيّ في محاولة مني لتجاهل ذلك الإحساس لكن بعدها بقليل بدأت أشم رائحةً مثل الدخان في الغرفة فتجاهلت الرائحة ولم أفتح عينيّ لكن الرائحة ازدادت في القوة ففتحت عينيّ لأجد الكتاب الثاني يحترق أمامي على الطاولة فقمت مسرعًا أحاول إخماده لكني لم أستطع اللحاق به ولم يتبقَّ منه شيء سوى بعض الرماد وقصاصات الورق المحترقة.

استيقظت في اليوم التالي وأنا أفكر في الأحداث التي حدثت منذ أن قرأت الكتاب الأول فقررت سؤال بعض المشايخ لعلي أجد حلًّا أو على أقل تقدير تفسيرًا لما يحدث لي عندهم، فبدأت بإمام الجامع القريب

من بيتنا فلم أجد عنده الحل أو الجواب الشافي واكتفى بتذكيري ببعض الأذكار فقررت تجربة مسجد آخر ولم أجد شيئًا حاسمًا لمشكلتي أيضًا.

استمررت بالبحث في أغلب المساجد التي أعرفها ودب اليأس في صدري وعدت ذلك اليوم للمنزل مرهقًا أبحث عن السرير لأنام عليه وأنسى عناء ذلك اليوم لكنني لم أنم تلك الليلة لحظة واحدة.

فبمجرد أن وضعت رأسي على الوسادة أحسست بيد قوية تحكم إغلاقها على عنقي وتمنع الأنفاس عني.

بدأت أنفاسي بالتناقص وبدأت عيناي تغرقان بالدموع وكنت أسمع طقطقة فقرات عنقي الذي كاد ينكسر من القوة التي أحكمت عليه وأيقنت وقتها أني هالك لا محالة.

وفي لحظة اختفى الضغط عن عنقي فجأة فنهضت من فراشي أبحث عن الهواء كالغريق الذي خرج للتو من الماء وكنت أبحث بعيني الدامعتين حولي عن مصدر هذا الاختناق لكنني لم أرَ شيئًا.

بعد أن هدأت والتقطت أنفاسي حاولت النوم مرةً أخرى لكن الضغط عاد على عنقي وبشكل أقوى من السابق وظللت في هذا الصراع فترة تجاوزت في مدتها الهجمة الأولى وكنت أرفس الهواء بقدمي عدة مرات طالبًا للنفس حتى ظننت أن هذا الشيء لا يريدني أن أعيش وعازم على قتلي.

تكررت الهجمات طيلة الليل وخاصة عندما أحاول أن أنام وقبل

الفجر بدقائق حدثت الهجمة الأخيرة لكن هذه المرة وخلال عملية الخنق وقبل ترك عنقي بثوانٍ سمعت صوتًا يهمس في أذني ويقول:

«لا تذهب للمساجد فأنت لست بعابد»

وانتهت بذلك الهجمة الأخيرة ونمت مباشرة من شدة الإرهاق والتعب.

استيقظت قبل المغرب بقليل وكان على عنقي وأكتافي آثار الهجمات في الليلة السابقة وجلست على طرف السرير حزينًا على حالي أفكر في صمت. بعد مدة من التفكير توجهت للحمام واغتسلت ثم خرجت من المنزل وذهبت لأجلس أمام البحر أفكر حتى أصبحت الساعة الحادية عشرة ليلًا تقريبًا.

لم أكن أريد العودة للمنزل لأن ما حدث معي البارحة لم يكن بالشيء اليسير ولا تزال آثاره النفسية والجسدية يانعة في ذاكرتي ومرسومة على جسدي فقررت في لحظة يأسٍ أن أذهب لمنزل قريبي العجوز الذي توفي. وصلت لمنزله عند منتصف الليل تقريبًا وترددت في طرق الباب في تلك الساعة المتأخرة لكن خوفي من العودة لغرفتي دفعني لطرق الباب حتى فتح لي ابنه وعندما قابلته افتعلت قصة لأدخل غرفة أبيه وقلت له إن أباه كان قد استعار مني بعض الكتب وأريد استعادتها فسمح لي بالدخول على مضض.

توجهت لغرفة قريبي العجوز وبدأت أبحث فيها كالمجنون، بحثت

في كل مكان وفي كل زاوية ولم أكن أعرف عن ماذا أبحث لكن لم يكن بيدي شيء آخر أفعله فواصلت البحث حتى وقعت عيني على صندوق تحت كومة من الملابس فسحبته لمنتصف الغرفة ورأيت أنه لم يكن مقفلًا ففتحته. وجدت فيه مجموعة من الكتب وبعض الأوراق والرسومات الغريبة وكانت الكتب الموجودة داخل الصندوق كلها على نفس هيئة الكتب التي أعطاني إياها قريبي العجوز.

كنت أريد أن آخذ منها لكنني لم أكن أعرف أي منها سينفعني وأي منها سيضرني فقررت الرحيل دون أخذ شيء منها. وقبل خروجي من منزل ابن الرجل العجوز قال لي ابنه:

لماذا لا تحصل على غيرها من المكان نفسه الذي اشتراها أبي منه؟

قلت له: أتمنى معرفة ذلك المكان.

فرد باستغراب وقال:

كنت أظنك تعرف مصدر هذه الكتب.

فقلت له بتوتر:

أخبرني بسرعة أرجوك من أين لأبيك بهذه الكتب؟

فأخذ ورقة وكتب عليها اسم بلد خليجي ثم مزق الورقة..

فقلت له: لماذا فعلت ذلك؟

فقال: أنا لست أحمق كي أدخل عالمكم.

فقلت له: أي عالم؟

.. فتركني ورحل وقبل رحيله قال:

تثبت من إغلاق الباب عند خروجك..

خرجت من منزله وتوجهت للمطار مباشرة وحجزت أول طائرة متجهة لتلك البلد التي كتبها ابن الرجل العجوز في تلك الورقة قبل تمزيقها أمامي. عدت للمنزل وأبلغت أهلي بأني سأسافر لفترة قصيرة وبالرغم من محاولات أمي لمنعي من السفر إلا أني لم أستجب لها ولتوسلاتها ولم أرد عليها لكنها استطاعت في النهاية إجباري على قطع وعدٍ لها بأني لن أتأخر وسأعود بسرعة.

ذهبت لغرفتي وأخذت معي الكتاب الأول وبعض الملابس البسيطة وخرجت فورًا باتجاه المطار.

لم يعلم أبي بخروجي لأنه كان نائمًا وكذلك أخي ولولا أن أمي كانت مستيقظة بالمصادفة لما قلت لها فلم أكن أنوي إخبار أحد برحيلي لأني كنت عاقد العزم على الذهاب والعودة بسرعة في فترة لا تتجاوز الثلاثة الأيام. وصلت لمطار العاصمة بعد أقل من ساعتين في الجو، نزلت في المطار وأنهيت كل الإجراءات الأمنية وبعد دقائق من خروجي من باب المطار أدركت أني لا أملك عنوانًا أو دليلًا أو أي شيء يقودني لمصدر الكتاب فلم أكن أملك سوى الكتاب الأول فقط فتوجهت لأقرب فندق وبت فيه حتى الصباح.

لم أنم كثيرًا وخرجت أتجول في تلك المدينة والكتاب معي ولا فكرة لدي عن الخطوة التالية التي يجب أن أتخذها.

بعد مدة من التجوال خطرت ببالي فكرة وهي التوجه لأي مكتبة لعلها تعرف دار النشر التي نشرت الكتاب أو أن يكون لديها فكرة عن المؤلف الذي قام بتأليفه.

وفعلًا بحثت عن أكبر مكتبة هناك وتوجهت إليها وقدمت الكتاب لأحد المسؤولين في المكتبة الذي نظر بدوره للكتاب وتصفحه قليلًا ثم نظر إليّ وقال:

«من أين لك بهذا الكتاب؟»

فحكيت له معظم قصتي..

سكت مسؤول المكتبة قليلًا وتغيرت ملامح وجهه ثم خرج عن سكوته وقال:

«لن تجد لهذا الكتاب مؤلفًا أو ناشرًا.. لكن يمكنني أن أدلك على من قد يساعدك في مسعاك»

فأعطاني وصفًا لمكتبة بعيدة عن العاصمة في مدينة أخرى يمكن أن أجد فيها ضالتي فقمت باستئجار سيارة كي أذهب إلى هناك لكني كنت أسأل طيلة الطريق لجهلي بالمنطقة. غطت الشمس في الأفق وتغير لون السماء للاحمرار وبدأ الليل بسط عباءته فلقد أضعت الكثير من الوقت بسبب كثرة سؤالي المستمر خلال الطريق ولم أكن قد وصلت بعد، لكني في النهاية وبعد عناء انتهى بي المطاف في تلك المدينة الصغيرة وفيها وجدت من دلني على تلك المكتبة، وبعد دخولي إليها وجدت على رفوفها

كتبًا مشابهة للكتب التي وجدتها في صندوق قريبي العجوز لكن صاحب المكتبة كان عجوزًا ضيق الخلق ورفض الحديث معي بخصوص الكتاب الذي كان معي واكتفى بإرشادي لمنزل شخص قال إنه قد يفيدني بهذا الخصوص، وبالرغم من التعب والإرهاق قررت إكمال المشوار وعدم التوقف، فسألت أحد المارة عن الطريق فأرشدني وقال:

«الطريق الذي يجب أن تسلكه جبليٌّ ووعرٌ وخطرٌ في مثل هذا الوقت من الليل».

وحذرني كذلك من شيء لم أفهمه..

قال: «خلال الطريق ستجد أناسًا قامتهم طويلة أو قامتهم قصيرة وسيلوحون لك للوقوف إياك أن تقف لهم.. إياك»

أكملت طريقي باتجاه المكان الذي وصفه لي صاحب المكتبة ولم أشاهد أحدًا في طريقي تلك الليلة.

وصلت للمكان المنشود في الفجر ولم أجد سوى منزل بسيط على سفح جبل مغطى بالخضرة وكان المنزل بلا جيران وكان أقرب للكوخ منه إلى المنزل انتظرت في السيارة حتى أشرقت الشمس ثم نزلت وطرقت الباب ففتح لي شخص يناهز الستين من العمر ذو لحية حمراء يخالطها بعض الشيب ويلبس على رأسه عمامة ملونة ونظر إليّ بتجهمٍ. ثم وجه نظره وكأنه يشاهد شيئًا خلفي وقال:

«ادخل أنت فقط أما هو فليبقَ بالخارج..»

دخل الرجل بيته وترك الباب مفتوحًا. نظرت خلفي ولم أرَ أحدًا فدخلت لمنزله وأنا مرتبك لأن منزله كان غريبًا. كان أغلب أثاث المنزل من الخشب وكان السقف عاليًا بعض الشيء ورائحة المكان غريبة، كانت تشبه التفاح المتعفن جميلة ومقيتة في الوقت نفسه.

جلست أمامه وقبل أن أتكلم تكلم قبلي وقال:

لن تتخلص منه بسهولة.. لماذا استدعيته؟

صمتُّ وأنا أنظر له ولم أعرف ماذا أقول..

فسألني بغضب: أين مخطوطته؟!

فأعطيته الكتاب الأول فرماه في وجهي بغضبٍ وقال:

ما هذا؟! أين مخطوطته؟!

فغضبت وقلت له:

لا أريد منك شيئًا !!

وتوجهت للباب وأمسكت المقبض بقوة وفتحته ووضعت قدمي على عتبته للخروج فقال الرجل وهو يضحك بهدوء:

يا ألله.. أنت لا تعرف شيئًا عن عالمنا أليس كذلك؟

فصرخت فيه وقلت:

ولا أريد أن أعرف!!

فقال لي بهدوء وهو يتصفح الكتاب الأول:

أبعد قدمك عن عتبة الباب يا فتى فلو خرجت الآن من الباب دون معرفة اسمه سوف يفصل رأسك عن جسدك في لحظة.

فقلت له: من تقصد؟

قال: الشيطان الذي استدعيته ينتظرك بالخارج ويعرف الآن بعد منعي له من الدخول معك أنك تبحث عن طريقة للتخلص منه وهو لن يبرح مكانه حتى يقتلك.

فقلت له: ولماذا يقتلني؟

قال: لأنك أتيت للمكان الذي يمكن أن يجعلك تسيطر عليه وتتخلص منه.

فقلت:أخبرني إذًا عن الطريقة التي يمكنني أن أتخلص بها منه !

قال: لا أستطيع دون المخطوطة التي استخدمتها لاستدعائه ومهما حاولت فلن تستطيع الخروج من هنا دون معرفة الطريقة الرادعة لذلك الشيطان لأنه سيبقى في الخارج ينتظرك دون أن ينعس أو يغلبه التعب.. صيفًا وشتاءً.. حتى لو استغرق الأمر منه أن ينتظرك مائة عام فلن يبارح مكانه حتى يقتلك.

بلعت ريقي وأنا أنظر للخارج من خلال الباب المفتوح وبدأت بالتراجع للوراء مبتعدًا عن الباب الذي كنت أبعد عنه خطوة واحدة فقط وقلت للرجل وأنا أحدق للخارج بصوت خافت يعتريه الخوف:

وما العمل الآن.. ؟

قال لي: تعالَ هنا يا فتى واجلس بجانبي.

جلست مع الرجل لعدة ساعات أحكي له حكايتي وكيف انتهى بي المطاف لعتبة بابه.. فسكت قليلًا ثم قال:

ليس أمامك إلا حل واحد..

فقلت له: ما هو؟

فقام من مكانه وأشار بيده نحوي للحاق به فذهبت خلفه لغرفة كبيرة كلها كتب ومجلدات ضخمة كانت أشبه بالمكتبة العامة وكانت رفوفها مرتفعة وبعضها يستلزم سلمًا قصيرًا للوصول إليه فقال لي وأنا أحدق بتلك المكتبة الضخمة بفم مفتوح وأعين متسعة:

هل تحب القراءة.. ؟

فقلت له وفمي ما زال مفتوحًا وعيناي تحدقان بتلك الرفوف العالية:

أحبها لكن ليس للدرجة التي تحبها أنت..

فضحك الرجل وقال:

ابحث عنه بين هذه الكتب وستجده وتجد اسمه وعندها ستعرف كيف تتخلص منه.

أغلقت فمي ووجهت نظري إليه وقلت له:

لكن.. من أين أبدأ؟

قال وهو يسحب كرسيًا ويضعه خلفي:

لا يهم من أي كتاب تبدأ فلن يشكل ذلك فرقًا لأننا لا نعرف عنه شيئًا فأنت كما يقال تبحث عن إبرة في كومة قش.

جلست على الكرسي أحدق بتلك المكتبة الضخمة وخلال تحديقي بها وضع الرجل يديه على أكتافي وقال:

لا تضيع الوقت فالأمر قد يستغرق زمنًا طويلًا..

فابتسمت وقلت له:

لقد وعدت أمي بِأني لن أتأخر ولا أنوي ذلك..

فرفع كفيه عن أكتافي وهم بالخروج من المكتبة وقال:

فلتبدأ إذًا !

بدأت بالقراءة وكنت أظن أن الأمر سيستغرق ساعات أو على أكثر تقدير بضعة أيام لكن الأمر استغرق ٣ سنوات كاملة لم ينقص منها إلا بضعة أسابيع وفي كل مرة كنت أحاول الخروج فيها عندما أصاب بحالة من اليأس كي أطمئن أهلي وأمي بالذات كان يحذرني الرجل من الخروج ومما قد يفعله بي ذلك الشيء الواقف في الخارج إذا خطوت خطوةً واحدةً خارج الباب.

عشت بين تلك الكتب اللعينة التي تحدثت عن كل شيء يخص العالم الآخر. أصبحت ملمًّا بالكثير من علومهم لكن لم أعرف شيئًا عن شيطاني الذي يقف عند الباب.

نمَت بيني وبين الرجل علاقة صداقة على مر تلك السنوات وبدأ يشفق على حالي وكان دائمًا يردد كلمة لن أنساها ما حييت كان يقول:

«اصبر على ذنبك..»

لم أكن أعرف معناها.. لكن كنت أحب سماعها منه وأرتاح عندما يقولها. خلال تلك السنوات الثلاث قرأت أكثر من ثلثي المكتبة التي

كانت عبارة عن مجموعة من الكتب والمدونات والأوراق المنفردة بالإضافة إلى بعض الرموز الغريبة التي كانت تحمل معاني مجهولة لم أفهم معناها إلا بشرح من ذلك الرجل. وفي يومٍ لا أنساه كان المطر يهطل فيه بغزارة على سفوح الجبل الأخضر قرأت هذا السطر:

«تسلط من سواد ضاحك الثغر «دجن»
ينهض من تراب وسيده يبكي في عدن»

تذكرت كلمة «دجن» التي كانت مكتوبة في الكتاب الأسود بخط يدٍ مختلفة وبدأت بالبكاء بلا شعور حاملًا الكتاب للرجل لأضعه بين يديه مشيرًا لذلك الاسم اللعين بإصبعي وأنا أبكي كالطفل وكأني مسجون استلم للتو صك براءته.

نظر لي الرجل والكتاب مفتوح أمامه وقال:

«هل هذا هو شيطانك يا فتى؟»

فأشرت برأسي ب «نعم» لأن صوتي سرق مني من شدة البكاء.

أجلسني الرجل بجانبه وحكى لي قصة (دجن) القرين المتمرد بالتفصيل. بعد ما فرغ الرجل من رواية قصة (دجن) قال لي إن الكتاب الذي قرأته لم يكن عن القرين بل كان خدعة لاستحضار (دجن) وهذه حيلة يستخدمها بعض السحرة والمشعوذين لإطلاق شياطينهم وتمكينهم من الوصول لعامة الناس لإيذائهم.

فقلت له وأنا أبتسم:

أعرف هذه المعلومة فقد قرأت عن هذا الموضوع في أحد كتبك منذ عدة أشهر.

وقف الرجل وأغلق الكتاب وقال لي:

هل أنت جاهز للرحيل؟

فقلت له: منذ أول يوم دخلت فيه منزلك..

وقبل أن أخرج قال لي الرجل ردد اسم (دجن) كي تحبسه في مكانه إلى الأبد ويجب أن تنطقها قبل أن تخرج لأنه قد يقتلك قبل أن تنطقها بثوانٍ.

فخرجت وأنا أردد: «دجن» .. «دجن» .. «دجن» .. وتوقفت عن ترديدها عندما ابتعدت عن البيت أمتارًا قليلةً ولم يحدث شيء.

فأدرت نظري نحو باب المنزل لأجد الرجل واقفًا عند بابه مبتسمًا.

عدت للرجل وودعته وشكرته بحرارةٍ على حلمه وصبره معي تلك السنوات وعلى مساعدته لي في التخلص من ذلك الشيطان الذي عكر صفو حياتي وتوجهت مسرعًا باتجاه السيارة التي ظلت مركونةً لثلاث سنوات وكل ما يدور في بالي هو:

«هل ستعمل؟»

ركبت السيارة وقبل أن أدير المحرك قال لي الرجل بصوت عالٍ من أمام شرفة منزله:

«عندما تعود في المرة القادمة أحضر لي بعض التين من بلدك!»

فضحكت وقلت له بصوت أعلى:

لن أعود أبدًا أيها الرجل الطيب !

فقال ضاحكًا: ستعود.. صدقني ستعود !

و قد كان معه حق..

قصة (دجن) كما رواها لي الرجل

عندما رأيت اسم (دجن) في ذلك الكتاب وأخبرت الرجل بأنه الشيطان الذي يطاردني أخبرني هو بدوره عن قصة الشيطان (دجن) القرين المتمرد. قال لي إن (دجن) كان قرينًا للساحر (نجد) فتذكرت أني قرأت في أحد كتبه أن اسم القرين يكون عكس الاسم الأول لصاحبه نطقًا وليس بالكتابة ولو غير صاحب الاسم اسمه سيبقى اسم قرينه عكس اسمه الذي ولد به.

وهذا الساحر كان يعيش في عدن قبل مئات السنين وكان دائمًا يعبث بالناس بتجريب السحر والطلاسم عليهم وقد تأذى منه الكثير ولم يكن هناك أحد يردعه عن أفعاله. وفي يومٍ حاول فيه إيذاء أحد المارة في السوق وجد نفسه مشلولًا لا يستطيع التحرك وأحس معها بألم شديد في صدره سقط على إثرها أرضًا وهو يصارع الألم وعدم القدرة على التحرك. وعندما كان الساحر (نجد) في هذه الحالة اقترب منه الرجل الذي كان يريد إيذاءه وقال له:

«اخترت الشخص الخطأ لتؤذيه هذه المرة يا (نجد)»

ثم قام الرجل بقراءة بعض الطلاسم التي حررت قرين الساحر (نجد) وأمر الرجل القرين بتعذيب (نجد) حتى يموت ثم يأتي إليه. وفعلًا قام (دجن) بتعذيب الساحر بشكل وحشي حتى فارق الحياة. ذهب (دجن) للرجل كما أمره بعد ما انتهى من قتل وتعذيب صاحبه (نجد)، واتضح أن الرجل كان ساحرًا قويًا ومعروفًا بين السحرة الكبار وكان يفوق بقوته (نجد) بمراحل فأخبر الساحر (دجن) بأنه حر ليفعل ما يشاء بشرط ألا يقتل أحدًا من الإنس إلا من يتعامل بالتحضير والشعوذة وقال له أيضًا:

«سوف أكتب لك كتابًا.. كل من يقرؤه يحق لك قتله بعد ما تتسلى به لفترة لكن احذر أن يعرف أحد اسمك فلو نطق به ستحبس في مكانك حتى يحضرك غيره»

بعدها افترق الاثنان واستمر كتاب (دجن) يلف من الغرب إلى الشرق يقتل كل من يقرؤه حتى وقع في يد امرأة من أهل الحجاز كانت تريد أن تعرف عن تحضير القرين وقرأت الكتاب فخرج لها (دجن) ليقتلها لكنه منذ أن رأى شعرها الأسود وقامتها القصيرة وهي من الصفات الفاتنة للشياطين وقع في حبها ولم يؤذها وظل يزورها كل ليلة متشكلًا بصورة بشر كي تقبل وجوده حولها.

وبعدما فرغ (دجن) من رواية إحدى قصصه ذات ليلة فتح (دجن) قلبه لها وظل يتحدث عن ماضيه مع الساحر (نجد) والساحر الذي

حرره وعن الذين حضروه قبلها وقتله لهم جميعًا وأخبرها كذلك بأن نطق اسمه هو الطريقة الوحيدة لإيقافه وتجميده.

فسألته: وما اسمك؟

فقال ضاحكًا: وماذا تريدين باسمي؟

قالت: بما أن حبي لك عظيم ولن أقدر على نطقه كي لا أفارقك أريد سماعه

فقال وهو مخمور بحبها: (دجن).. اسمي (دجن)

فوضعت ظهر يدها على خده وقالت:

«وداعًا (دجن)..»

وبنطق اسمه حبسته مرة أخرى، وبسبب محاولاتها المتكررة والفاشلة في التخلص من الكتاب بحرقه وتمزيقه قررت كتابة اسمه في صفحة تحضيره بخط يدها كي يعرف الناس سر التخلص منه.

هنا قاطعت الرجل وقلت له:

لماذا لم تستطع المرأة أن تتخلص من الكتاب بتمزيقه أو إحراقه؟

فرد علي وقال:

هل حاولت أنت فعل ذلك من قبل؟

فقلت له: لا

فقال: حتى وإن حاولت كان الكتاب سيعود كما كان.

فقلت له: لكن الكتاب احترق في غرفتي وأمام عيني.

فقال: هذا بفعل (دجن) لأنه علم بما صنعته المرأة ولا يريد لأحد أن يحبسه. كان يريد أن يبقى حرًّا إلى الأبد وأحرق الكتاب ليمنع أحدًا من تجميده مرة أخرى وعندما قمت أنت بتحضيره كانت تلك فرصته لفعل ذلك وتحرير نفسه إلى الأبد.

بعد ما انتهى الرجل من سرد حكاية (دجن) سألته:

كيف عرفت كل هذا؟..

سكت قليلًا ثم قال:

نحن السحرة نتعامل مع الكثير من الجن والشياطين وأخبارهم تصلنا دائمًا منهم بسرعة البرق فنقوم نحن بتدوينها في كتب ومدونات وهذا جزء من اتفاقنا معهم لكن أخبار (دجن) انقطعت منذ فترة ولم يسمع عنه أحد حتى قمت أنت بتحضيره وإطلاق سراحه.

فقلت له: لماذا إذًا قلت لي إنك لا تعرف اسم شيطاني؟

فقال وهو يبتسم: هناك المئات بل الآلاف من الشياطين الذين يذكرون في المدونات يوميًّا هل تظن أنك الوحيد أو أن (دجن) هو الوحيد الذي تم تناقل أخباره؟ ثم إن الأخبار كانت عنه وليست عنك.

سكت قليلًا ثم سألته بعدها سؤالًا أخيرًا وقلت:

هل سيبقى (دجن) محبوسًا إلى الأبد إذا نطقت اسمه؟

قال: نعم.. فكتاب تحضيره أحرق والشخص الوحيد الذي يعرف طريقة تحضيره وتجميده وما زال على قيد الحياة هو أنت وأنا فقط وبموتك يموت (دجن) لأنه لن يجد أحدًا ليحرره.

فابتسمت وودعت الرجل وخرجت لأحبس (دجن) إلى الأبد..

رحلة العودة لبلادي

لن أدخل في تفاصيل ما حدث معي في المطار وصعوبة العودة لبلادي حيث لم يكن معي مال وكان هناك بلاغ مسجل باسمي للبحث عني في تلك الدولة بسبب البلاغ المقدم من أهلي كشخص مفقود وتسليمي أمنيًّا إلى دولتي والتحقيق معي لفترة فهذه أمور يطول شرحها لذلك سأبدأ من لحظة وصولي للمنزل ودخولي الباب بعد ٣ سنوات من الغياب.

كان استقبال أهلي خليطًا من الفرح لعودتي والحزن والغضب من رحيلي، كان أخي وقتها قد بلغ العشرين من عمره وأنا قد ناهزت الثلاث والعشرين وأمي قد بدا عليها التعب والمرض. أمي كانت تبكي وهي تقبلني وأبي كان يدعو لي وعلي في الوقت نفسه وأخي يبتسم ودموعه في عينيه وأنا بينهم أبتسم مرتاحًا لأن كل شيء قد انتهى وفي تلك اللحظة قررت أن أنسى الماضي وأستعيد زمام حياتي.

فصلت من الجامعة لكن بلدي بلد الواسطات فعدت إلى مقعد الدراسة خلال أيام وبدأت أدرس مثل أي طالب آخر وعادت حياتي لطبيعتها حتى دخل علي أخي في غرفتي في أحد الأيام وكان الوقت بين

المغرب والعشاء وأخذ يبكي بخوف ويقول:

«ساعدني يا أخي لم أعد أستطيع التحمل!»

فقلت له: ما بك؟!

فقال: بعد رحيلك واختفائك المفاجئ بحثنا عنك في كل مكان ولم نجد لك أثرًا وسألنا عنك جميع أقربائنا ولم يخبرنا أحد بشيء يدلنا عليك إلا قريبنا ابن الرجل العجوز (كان يقصد ابن الرجل الذي أعطاني الكتابين) فقد قال لي إنك أتيت إلى منزله في الليلة التي اختفيت فيها وبحثت في غرفة أبيه وقرأت بعض كتبه وخرجت منها مسرعًا.. فطلبت منه أن يعطيني تلك الكتب.

وقبل أن يكمل جملته صرخت فيه وقلت:

هل أخذت تلك الكتب؟!

رد وهو يبكي:

«نعم وقرأت كتابًا واحدًا فقط ومن ذلك الوقت لا أستطيع النوم أرجوك ساعدني يا أخي !»

قلت له: أحضر جميع الكتب بما فيها الكتاب الذي قرأته.

أحضر أخي جميع الكتب وبسبب خبرتي وعلمي الواسع الذي اكتسبته من مكتبة الرجل فرزت الكتب إلى ثلاث فئات:

كتب تحضير حقيقية..

كتب تحضير وهمية..

كتب سحر وربط..

وطلبت من أخي أن يشير إلى الكتاب الذي قرأه وقلبي يتمنى أن يكون من كتب التحضير الوهمية، لكن للأسف فقد خاب ظني فالكتاب الذي اختاره كان كتاب تحضير حقيقيًا مسؤولًا عن تحضير شيطان اسمه (يعرم) وهو شيطانٌ علويٌّ قويٌّ جدًّا يعذب من يحضره بالكوابيس والعبث في جسده حتى يمل منه ويقتله. (يعرم) هذا ليس بشيطانٍ سهلٍ فقد قرأت عنه من قبل أنه يملك قوة غير اعتيادية وينحدر من قبيلة «الأباطحة» وابنٌ لأحد ساداتها.

طلبت من أخي الرحيل وطمأنته أن كل شيء سيكون على ما يرام ثم قمت بتصفح الكتب المتبقية وبواسطة خبرتي كنت أقرأ الطلاسم بذهني لا بشفتيّ لأن بعضها لا يكون له تأثير إذا لم تنطقه بشكلٍ مسموع، وخلال تقليبي للكتب وجدت بينها كتابًا لتحضير القرين وقد كان حقيقيّاً ولم يكن فخًّا كما كان مع كتاب (دجن)، وحسب ما قرأت فيه فإن القرين المحرر يمكن السيطرة عليه وتسخيره ببعض الطلاسم التي حفظتها من المكتبة، والقرين المحرر يكون أقوى من الكثير من الشياطين بما فيها (يعرم) نفسه لذلك قررت تحضيره ولو كنت أعرف ما سيحدث بعدها لما حضرته لكن نظرًا لصغر سني في تلك الفترة وضعف وازعي الديني وجهلي بالحلال والحرام فيما يخص هذا العالم وما مررت به في السنوات

الثلاث الماضية كان لذلك كله تأثير على قراراتي لذلك لم أفكر في وقتها عن الأضرار التي قد تنجم عن العبث في مثل هذا العالم.

نفذت كل ما ذكر في صفحة التحضير بالحرف وظهر قريني أمامي متشكلًا بشكلي لكنه كان مختلفًا قليلًا وكان دون إحدى عينيه.

قال لي:

«شكرًا يا أخي سأتخلص من (يعرم) لأجلك الآن»

ثم اختفى..

وبعد قليل سمعت صوت صراخ قوي يأتي من غرفة أخي فذهبت له مسرعًا ودخلت عليه في غرفته لأجده على سريره غارقًا في بركة من الدماء وهو يبكي وسطها ولم يكن يعاني من أي جروح فقلت له وأنا أتفحص جسمه بسرعة:

ماذا حدث؟!

قال: لا أعرف أنت من دخل علي وطلبت مني أن أغمض عينيّ ففعلت ثم أحسست بهذه الدماء تغطي جسدي دفعة واحدة. فعانقت أخي مدركًا أن (يعرم) قد مات على يد قريني وهذه الدماء التي تغطي أخي ما هي إلا دماء ابن سيد «الأباطحة» (يعرم). انتهت مشكلة أخي مع (يعرم) وعادت حياته طبيعية وفي تلك الفترة عادت حياتي أنا كذلك لطبيعتها مع أصدقائي وأهلي وزملائي في الدراسة وبعد سنة تقريبًا من

هذه الحادثة زارني قريني في المنام وقال لي:

«دينك اليوم يا أخي ينقضي..»

استيقظت وأنا أفكر في تلك الجملة لكني لم أستطع فهم معناها وفي اليوم التالي وبعد ذهابي للنوم ببضع ساعات استيقظت مفزوعًا بصرخة كانت قريبة جدًّا من أذني وبعد ما استيقظت سمعت صوتًا يشبه صوتي قادمًا من داخل غرفتي لكني لم أستطع أن أرى وجه المتكلم وكان الصوت يردد اسم مكان معروف في مدينتنا.

بعد انقطاع الصوت قررت التوجه لتلك المنطقة وكانت الساعة قرابة الواحدة صباحًا فركبت سيارتي وتوجهت للمنطقة وبدأت أتجول فيها وبين بيوتها ومحلاتها حتى رأيت شخصًا يشير لي بيده لأقف. في السابق لم أكن لأقف لمثل هذا الشخص الغريب وفي مثل هذه الساعة في هذا المكان المجهول نسبيًّا بالنسبة لي لكن يبدو أن قلبي قد مات خلال السنوات الأربع الماضية.

توقفت وفتحت النافذة وسألت عن ما يريده الرجل مني فعاتبني لأني تأخرت وطلب مني الدخول لمنزله. نزلت من السيارة وأنا محتار بين الدخول والانصراف فقررت الدخول. دخلت إلى مكان ضيق أشبه بالمنزل الصغير وشممت رائحة تشبه الرائحة التي شممتها في بيت الرجل الذي مكثت عنده ثلاث سنوات. دخلت وسمعت صوتًا ينادي ويقول: «من هنا»

توجهت باتجاه الصوت ووجدت شخصًا جالسًا على الأرض يشبه في لبسه وهيئته صاحبي الذي مكثت عنده في الجبل الأخضر وكان الشخص الذي فتح لي الباب يقف خلفه وفي يده كأسٌ لم أستطع رؤية محتواه لأنه لم يكن شفافًا. طلب مني الرجل الواقف الجلوس أمام الرجل الآخر وقال:

هل أنت جاهز؟

فقلت له: جاهز لماذا بالضبط؟

قال: للمرحلة الأخيرة من تنصيبك؟

قلت: تنصيب ماذا؟.. عن ماذا تتحدث؟

فغضب الرجل الجالس وصرخ بي قائلًا:

هل أتيت هنا لتسخر مني؟

فصرخت في وجهه وقلت:

هل أنت مجنون؟!

فوضع الرجل الذي كان واقفًا الكأس على الأرض وأنهضني بسرعة وخرج بي للخارج وهو يقول:

ماذا بك؟ ما الذي تفعله؟

فصرخت فيه وقلت: ماذا بك أنت؟!

فرد بغضب واستغراب وقال:

تنهي جميع الشروط الصعبة وعندما تصل للمرحلة السهلة تقف؟!

لم أفهم منه شيئًا وقلت له:

أنا سوف أرحل يبدو أني أتيت للمكان الخطأ.

وقبل أن أخرج أمسك الرجل بذراعي وقال:

لن يسمحوا لك بالهروب منهم بهذه السهولة أنت واحد منهم الآن ويجب أن تتم مراسم التنصيب.

تفلتُّ منه وخرجت وركبت سيارتي وعدت للمنزل لأجد أخي في حالة من الخوف وهو يقول لي إن أمي صرخت فجأة ثم سقطت على الأرض وأخذوها للمستشفى. ذهبت مسرعًا للمستشفى وأخبرني الطبيب أنها في غيبوبة وصارحني بأنه لا يعرف سبب الحالة. دخلت عليها مسرعًا ورأيت عليها علامات لم يرها الطبيب وكنت قد قرأت عنها في أحد الكتب في تلك المكتبة اللعينة وكانت كلها تشير إلى أنها تعرضت لمس شيطاني مرسل وليس مختارًا أي إن هناك من أرسل لها شيطانًا ليعبث بها فلم يخطر ببالي إلا ذلك الرجل المجنون ومساعده فركبت سيارتي متجهًا لمنزله بنية الانتقام. توجهت للمنزل وكان الفجر قد اقترب. طرقت الباب بقوة ففتح لي رجل لم أره من قبل وقلت له:

أين الذي يسكن هنا؟!

فقال: أنا من يسكن هنا

فقلت له: أنت كاذب!

وتشاجرت معه واجتمع علينا الناس الذاهبون لصلاة الفجر وفرقوا بيننا فركبت سيارتي ورحلت. في طريقي للمنزل كنت أقود سيارتي بسرعة وفي لمح البصر ظهر قريني معي في السيارة وكان جالسًا في المقعد المجاور للسائق وقال بصوت مرتفع:

«دَينُك اليوم ينقضي !!»

ففزعت منه وفقدت التحكم بالمقود ووقع لي حادث شنيع نقلت على أثره إلى المستشفى. لم أعانِ من أي كسور أو جروح بالرغم من أن السيارة قد تحطمت تمامًا، دخل علي الطبيب وكانت الساعة قرابة السادسة صباحًا وقال نجوت بأعجوبة وستخرج من هنا غدًا بإذن الله. زارني أخي في المستشفى وأوصيته أن يشغل سورة البقرة بجانب أمي وأن ينام معها تلك الليلة ويمسح على جبينها من ماء زمزم.

رحل أخي ونمت قليلًا حتى العصر وعندما استيقظت أحسست ببرودة شديدة فطلبت من الممرضة إطفاء التكييف لكن لم يتغير شيء طلبت منها غطاءً إضافيًا لكن لم يجدِ ذلك نفعًا فحاولت النهوض من السرير لكني لم أستطع لأني أحسست بشيء ثقيل على صدري، شيء كاد يحطم أضلعي وأخذ الثقل يزداد تدريجيًا حتى ثبتني تمامًا على السرير.

حاولت الصراخ لكن شيئًا ما كمم فمي عرفت وقتها أنه قريني الذي حررته وأنه عاد ليحصل ذلك الدين الذي يتحدث عنه. عندما خف الضغط عن فمي بعد خمس دقائق تقريبًا استطعت تحريك لساني وقلت:

«ماذا تريد؟!»..

لم يرد علي أحد فكررت العبارة وكنت أرفع صوتي في كل مرة حتى عاد الضغط على فمي مرة أخرى وسمعت همسًا بصوتي في أذني يقول:

«أريد أن أتواصل معك أريد أن تستجيب لهم أريد أن تراني»

لم أفهم كلامه وظل مطبقًا على صدري وبدأ يضربني ضربًا مبرحًا حتى أغمي علي. استيقظت صباحًا على صوت الطبيب وهو يقول لي:

«ماذا فعلت بنفسك؟!»

لم أعرف قصده حتى رأيت الضمادات تغطي صدري وذراعي ولفافة ملفوفة على رأسي. نهضت ببطء من الفراش والطبيب يحاول إمساكي وأنا أتفلت منه وفي النهاية نجحت بالخروج من المستشفى وخرجت متوجهًا للمنزل. قابلت أخي وأخبرته أنني يجب أن أسافر فأمسكني وقال:

«لن تسافر مرة أخرى !!»

فقلت له: يجب أن أسافر وإلا فلن أسامح نفسي لو أصاب أمي مكروه!

فقال: وما علاقة سفرك بها؟

قلت له: لا عليك فقط انتظروني.

توجهت للباب وأخي يتذمر مني ومن الذي سيحدث لأبي بسبب غيابي للمرة الثانية فلم أرد عليه إلا بسؤال واحد عندما أمسكت مقبض الباب في طريقي للخروج من المنزل وقلت له:

«هل نحن في موسم التين؟..»

الـ ٣ سنوات التي قضيتها محبوسًا في المكتبة

الرجل الذي قضيت معه ثلاث سنوات من عمري رغمًا عني ودون اختياري كان اسمه (عمار) كما حكى لي فيما بعد. منذ أول يوم قضيته معه كنت ثائرًا وساخطًا على حالي خاصة عندما طال البحث عن (دجن) في كتبه. كنت حبيسًا للمكان وكان هو يخرج من وقت لآخر لإحضار الطعام وكان بيته معزولًا عن المدينة وسط تلال خضراء وكنت أشعر بالملل والقلق دائمًا على حال أهلي بعد رحيلي وغضبت منه كثيرًا لأنه رفض التواصل معهم وطمأنتهم عليّ وعلى حالي لكني تفهمت سبب خوفه فيما بعد.

الفترة التي قضيتها مع (عمار) لم تكن بسيطة وأثرت على شخصيتي وسلوكياتي كثيرًا وفي مرحلة متأخرة أبعدتني عن ديني وخلقت مني إنسانًا مختلفًا.

الدقيقة الأولى في بيت (عمار):

كانت تلك الدقيقة مليئة بالانبهار والاستغراب من شكله وشكل

بيته الذي كان بسيطًا ومكونًا من دور واحد فقط وليس به غرف كثيرة وسقفه المغطى بالأخشاب بالرغم من أن المنزل كان من الطوب.

لم أتحدث في هذه الدقيقة لكنني أدركت أني دخلت لعالم مختلف.. عالم يختلف كليًّا عن العالم الذي أتيت منه، ومنذ تلك الدقيقة ورغبة الخروج من منزله تراودني.

الساعة الأولى في بيت (عمار):

هي الساعة التي قدم فيها لي (عمار) مفتاح خلاصي وفي اللحظة نفسها رماه في بحر عميق وقال لي اذهب وابحث عنه وأنا لم أكن أجيد السباحة. قضيت ساعتي الأولى في بيته وأنا أقرأ على عجالة كي أدرك طائرتي قبل إقلاعها.. لم أكن أعرف وقتها أن الرحلة سوف تؤجل قليلًا. عندما أعطاني (عمار) الخيار لأبدأ من أي كتاب لم أفكر في الاختيار بشكل محدد بل مددت يدي على أول كتاب رأيته وفتحته وبدأت القراءة فيه بلا هوادة أو تركيز. كنت أبحث عن شيء لا أعرفه لذلك لم أجده. قلبت الصفحات وفي معظم الوقت لم أفهم شيئًا لأن تلك الكتب كانت تتحدث مع القارئ وكأنه يعرف المقصود من الكلام والرموز لذلك ذهبت ل(عمار) بعد نصف ساعة من القراءة وقلت له:

لا أفهم شيئًا مما هو مكتوب.. ولا أظنني أستطيع الإكمال

قال: لن تفهم شيئًا في البداية لكن استمر وأعدك أنك ستفهم

أغلقت الكتاب ووضعته على المنضدة التي كانت بجانب (عمار)

وأخذت نفسًا عميقًا وقلت له:

لا أستطيع..

فقال: هل تنوي البقاء هنا للأبد؟

سكت وأنا أنظر في عينيه اللتين كانتا تحدقان بي بجدية ثم قلت له: لا أستطيع..

نهض (عمار) من مكانه وبيده اليسرى حمل الكتاب وبيده اليمنى أمسك بكتفي وهزني وقال بنبرة صارمة:

لقد استطعت قراءة كتاب تحضير ذلك الشيطان وسوف تستطيع إيجاد الكتاب الذي يخلصك منه !

مددت يدي وأخذت الكتاب بشمالي وأنا أقول:

«ليتني لم أقرأ ذلك الكتاب..»

بعد ذلك نهضت من مكاني وعدت للمكتبة وأكملت قراءة الكتاب..

اليوم الأول مع (عمار):

بقيت أقرأ في المكتبة حتى غابت الشمس ولم أشعر بالوقت حتى دخل عليّ (عمار) بعد غروبها تمامًا بمصباح في يده وقال: هل وجدت شيئًا؟

فقلت له: لا.. ولم أفهم شيئًا أيضًا..

فضحك وقال: توقف عن القراءة الآن وتعالَ لتأكل

فقلت له: لا أستطيع يجب أن أجد ما أبحث عنه

فقال لي: لا أريدك أن تقرأ وقت الغروب

فقلت له: ولماذا؟

فقال: لا تسألني الآن سوف أخبرك عن السبب يومًا ما.

نهضت من مكاني وتوجهت لغرفة المعيشة لأجد (عمار) جالسًا ومعه إناء واحد وفيه خليط غريب أشبه بالهريسة وقال لي:

تفضل تناول معي طعام العشاء..

لم أرغب في البداية بتناول ذلك الطعام فقد كان الأكل الذي أحضره (عمار) غريبًا لا يشبه الأكل الذي تعودت عليه وعندما سألته عن نوع الطعام ومصدره قال لي:

«كل ولا تسأل»..

ترددت في البداية لكن جوعي أرغمني على التذوق. لاحظت أن (عمار) لم يسمِّ وكان يأكل بيده اليسرى لكني لم أعلق على ما لاحظته. بعد الانتهاء من الطعام سألني (عمار) وقال: كيف وجدت الطعام؟

فقلت له: لقد كان جيدًا..

قلت ذلك من باب الذوق لكن الطعام كان بلا طعم تقريبًا ولم يكن به ملح أو أي مصدر للتذوق لكني لم أرِد أن أكون فظًّا مع من فتح لي باب منزله.

عدت للقراءة بعد تناول الطعام مباشرةً بالرغم من أن (عمار) حاول إقناعي بتأجيل ذلك للغد لكني لم أكن أريد أن أضيع الوقت فرحلتي في

المطار كانت بعد يوم. دخلت المكتبة وكانت مظلمة فبحثت عن مصدر للكهرباء كي أشعل الإضاءة لكني لم أجد بالرغم من تذكري وجود إضاءة في غرفة المعيشة عندما كنا نتناول الطعام. عدت لغرفة المعيشة ووجدت (عمار) جالسًا يكتب في إحدى مدوناته ورفعت نظري لأبحث عن مصدر النور في الغرفة فوجدته مصباحًا يعمل على الزيت فتعجبت وسألت (عمار):

ألا تملك كهرباء في هذا المنزل؟

لم يرد (عمار) على سؤالي واستمر بالكتابة.

كررت السؤال عليه أكثر من مرة لكنه كان يكتب بتركيز وكأنه لا يعي شيئًا مما حوله. عدت للمكتبة وبدأت أبحث عن مصدر الضوء فيها وخلال بحثي دخل علي (عمار) وفي يده مصباح غير المعلق في غرفة المعيشة وقال:

خذ.. استخدم هذا المصباح

فقلت له: ما الذي حدث قبل قليل.. لماذا لم ترد علي؟

تجاهل (عمار) سؤالي ودخل المكتبة وهو يحمل المصباح في يده ويقول:

تعال سأريك شيئًا..

لحقت به ونسيت أمر سؤالي. جلس (عمار) على الطاولة التي كانت تتوسط المكتبة ووضع المصباح في المنتصف ثم أحضر كتابين ووضعهما بجانب بعضهما بعضًا وقال: افتح الكتابين..

جلست بجانب (عمار) وفتحت الكتاب الأول فوجدته شبيهًا

بالكتب التي قرأتها ذلك اليوم ثم فتحت الكتاب الثاني فوجدته مختلفًا فقد كان مكتوبًا بخط اليد فقلت له:

ما الذي تريد قوله لي؟

قال: هناك نوعان من الكتب.. الكتب المطبوعة وهي كتب جيدة لكنها ليست نادرة ويوجد منها عدة نسخ لكن الكتب المكتوبة بخط اليد لا يوجد منها إلا نسخة واحدة أو على أكثر تقدير نسختان في هذا العالم وأنا أملك منها خمسة.

فقلت له: ولماذا تخبرني ذلك؟

فقال: لا تقرأ الكتب المكتوبة بخط اليد

فقلت: لماذا؟

فقال: لست مستعدًّا لها بعد.

فقلت: لكن ربما خلاصي موجود بين طياتها.

فقال: لا تقلق أنا أدرى بمحتواها وهي لا تحتوي على شيء يفيدك.

لم أجادل (عمار) كثيرًا لأني لم أكن حريصًا على قراءة المزيد من كتبه بل في الواقع كنت سعيدًا لأن الكتب التي يتوجب عليّ قراءتها الآن قد نقصت خمسة كتب.

بعد ساعات من القراءة تحت ضوء المصباح دخل عليّ (عمار) قبل الفجر وقال:

يجب أن تنام الآن

فقلت له: لا أستطيع.. يجب أن أجد ضالتي

فقال: هذا ليس طلبًا بل أمر

فقلت: أنا متعب على أي حال.. أين سأنام؟

عاد (عمار) لغرفة المعيشة ثم عاد ومعه لحاف متين وأعطاني إياه وقال:

سوف تنام بالمكتبة على الأرض.

فقلت له: ألا تملك وسادة؟

فقال: لا تحتاج لها

ثم خرج وأغلق عليّ الباب..

الأسبوع الأول مع (عمار):

الأيام الأولى في منزل (عمار) كانت الأصعب فقد كنت مثل السجين الذي يريد أن يخرج من سجنه وينهي معاناته وكنت في حالة نفسية غير مستقرة. كنت شديد العصبية خاصة بعد فوات رحلتي التي كانت ستأخذني لبلادي. كنت أقرأ بسرعة وعلى عجالة بين الكتب كي أصل لهدفي المجهول بأسرع وقت ممكن وتجاهلت نصائح (عمار) بالتروي والتدبر في الكلمات المكتوبة وعدم المرور عليها مرور الكرام. لم أستمع لكلامه واستمررت أقرأ بطريقتي لكن دون جدوى. فلم أكن أفهم ما اقرأ ولم أكن أعرف عن ماذا أبحث فقد كنت في دوامة ناهيك عن بعض الكلام المقزز المكتوب في تلك الكتب من تمجيد للشياطين. لقد كانت هذه الكتب أشبه بتلك الهريسة المقرفة التي تناولتها مع (عمار) في أول يوم والتي اتضح لي فيما بعد أنها طعامه اليومي ولا يأكل غيرها ولم يكن أمامي خيار غير أكلها معه.

لقد فرض عليّ نظام حياة جديد ومختلف عن نظام حياتي. كان (عمار)

يقفل الباب علي في المكتبة من المغرب وحتى شروق الشمس ولا يترك معي إلا المصباح وقليلًا من الزيت يكفي لساعتين من القراءة ولم أكن أعرف السبب لفعله ذلك.. قلت في نفسي وقتها «لعله لا يريد تحمل نفقات الزيت المكلفة».

واجهت (عمار) في اليوم الرابع تقريبًا وسألته عن سبب إغلاقه باب المكتبة عليّ في المساء فقال:

ولماذا تريد الخروج؟

فقلت له: لا أريد الخروج لكني لا أريد الإحساس بأني سجين فيها.

فقال: أنت بالفعل سجين فيها وعندما تدرك ذلك سترتاح

صرخت في وجهه وقلت: الموت أهون مما أنا فيه

فقال: الموت ينتظرك في الخارج وأنا لم أمنعك من معانقته

سكت وأنزلت بصري إلى الأرض وعدت للمكتبة لإكمال القراءة..

الشهر الأول مع (عمار):

قد تكون هذه الفترة أصعب فترة قضيتها مع (عمار) فقد كنت فيها مستاءً جدًّا وبدأت أمل من القراءة ومن الطعام ومن كل شيء. مرضت في هذه الفترة مرتين وكان (عمار) يسقيني شرابًا غريبًا خلال مرضي وبالرغم من أن مرضي في المرتين كان مختلفًا إلا أنه كان يسقيني الشراب

نفسه. لم أمانع طعمه المر لأنه كان تغييرًا لطيفًا عن تلك الهريسة المقرفة. خلال ذلك الشهر بدأت التعرف أكثر على روتين (عمار) اليومي وبدأت أنتبه لغرابة نمط الحياة التي كان يعيشها فقد كان قليل الخروج من المنزل ويكتب أكثر مما يقرأ وكان يتمتم أحيانًا بينه وبين نفسه بعض الكلمات التي لم أفهمها ناهيك عن التحدث مع نفسه أحيانًا. ومع ذلك لم يكن (عمار) حريصًا على إخفاء أسلوب حياته الغريب عني فقد كان يتعامل معي وكأني غير موجود أو معتاد على هذه الأمور. وبالفعل مع الوقت بدأت أتعود على ما أراه.

المنزل الذي كنت فيه مكون من غرفة للمعيشة وغرفة نوم صغيرة جدًا كان (عمار) يأوي إليها في المساء بالإضافة للمكتبة التي احتلت أكبر مساحة من المنزل ولم أكتشف عدم وجود دورة للمياه إلا بعد اليوم الأول عندما احتجتها فقال لي (عمار):

أنا أقضي حاجتي في الخارج..

فقلت له: وما العمل.. أنا لا أستطيع الخروج من هنا

فضحك (عمار) بقوة فقلت له:

هل هذا وقت الضحك؟

فقال: عذرًا لكن حالتك الآن مضحكة !

فقلت له: أعطني الحل واضحك كما تشاء.

فخرج (عمار) للخارج وعاد ومعه دلو معدني وقال:

ستكون هذه دورة المياه الخاصة بك طيلة فترتك هنا.

لم أجادله ودخلت المكتبة وقضيت حاجتي ثم عدت وقلت له:

أحتاج للماء كي أغتسل.

فقال: الماء شحيح هنا والبئر الذي أحضر منه الماء ليس بالقريب.

فقلت له: أرجوك لا أستطيع البقاء دون الاغتسال.

فتعاطف معي أول مرة وأحضر لي الماء.

كانت تلك الفترة صعبة وشاقة فقد سلبت مني الكثير من وسائل الحياة التي كنت أعتبرها من المسلمات فقد كان الاستحمام مرة في الشهر وشيئًا فشيئًا أقنعت (عمار) بتوفير ماء الاستحمام لي مرة في الأسبوع لكن عندما حل الشتاء القارس وكان الماء شبه متجمد لم أستحم لأكثر من شهرين.

لم أشرب غير الماء و(عمار) كان يحتسي مشروبًا ساخنًا من وقت لآخر وكنت أسأله:

هل هذا شاي أم قهوة؟

وكان يجيب: هل تريد بعضه؟

وكنت أقول: أريد أن أعرف محتواه أولًا

وكان يرد وهو يأخذ رشفة أخرى: صدقني لا تريد أن تعرف

في هذه الفترة كنا في الشتاء وعلى مشارف الربيع وكنت أستمتع بالطبيعة الخلابة التي استرقت النظر إليها من وقت لآخر من خلال نافذة غرفة المعيشة فالغرف الأخرى لم يكن بها نوافذ.

سألت (عمار) يومًا عما إذا كان بمقدوري فتح النافذة لاستنشاق الهواء فقال:

لا بأس فالشيطان بالخارج لن يستطيع الدخول منها للمنزل لكن كن حريصًا ألا تطل برأسك.. (قالها وهو يضحك)

فتحت النافذة واستنشقت بكل قوتي عبق الحرية الذي افتقدته، كانت رائحة زهور الربيع اليانعة زكية ونسيم الجبل باردًا وعليلًا. أحسست بالسعادة لأول مرة منذ دخولي لهذا المنزل. لكن خلال استنشاقي لهذا العبير الزكي صدمت برائحة كريهة جدًّا أشبه بالبيض المتعفن المختلط برائحة الدخان فكتمت أنفاسي وأغلقت النافذة وسألني (عمار) وقال:

ماذا بك؟!

فقلت: لقد شممت رائحة كريهة جدًّا كالجيفة المحترقة.. هل قمت بحرق شيء بالخارج؟

ضحك (عمار) وقال: الرائحة التي وصفتها هي رائحة شيطانك.. يبدو أنه اقترب من النافذة جدًّا على أمل أن تخرج.

سكت وأنا أنظر للخارج من خلال النافذة وأقول في نفسي:

«سأجدك بين تلك الكتب»..

السنة الأولى مع (عمار):

استمررت بالقراءة واستمرت نوبات غضبي بالازدياد لكن (عمار) كان صبورًا وحليمًا بشكل غريب. كان يؤمن بي أكثر من إيماني بنفسي ولم أعرف السبب وراء ذلك. لكن مع مرور الأيام بدأت أتعود شيئًا فشيئًا على نظام (عمار) الغذائي والحياتي. قلت الأوقات التي كنا نتحاور فيها لأني لم أعد أسأل كما كنت في السابق فالكتب أصبحت مألوفة وبعضها بدأ يترابط مع الآخر في ذهني ولم أكن أستعين ب(عمار) إلا في الأمور المستعصية. كنت أتوقف عن القراءة في موعد الوجبة الوحيدة ذلك اليوم وهي تلك الهريسة التي كان يصر (عمار) على تناولها يوميًا بالرغم من محاولاتي المتكررة لإقناعه بالتغيير ولو لفترة بسيطة لكنه كان يرفض بشدة.

بعد عدة شهور من البحث في الكتب بدأ (عمار) يتحدث معي ويمازحني ونمت بيننا علاقة جيدة دفعته لمساعدتي في البحث من وقت لآخر، تعلمت منه أشياء كثيرة غير المكتوبة في الكتب كان رجلًا طيبًا بالرغم من أنه كان ساحرًا خبيثًا.

أذكر مرة أني قلت له:

ألا تدرك يا عمار أن الساحر كافر؟!

فضحك وقال: وماذا عن من يأتيه؟

فسكت ولم أفتح معه الموضوع مرة أخرى..

طلبت منه يومًا أن يحضر لي أدوات حلاقة لأن شعر رأسي وذقني وجسمي بدأ يزعجني فرفض وقال كثرة الشعر على الساحر مصدر قوة له.

فقلت له: أنا لست بساحرٍ يا (عمار) ولا أريد أن أكون ساحرًا !

فقال: الأمر لم يعد خيارًا أنت منا وستبقى كذلك.

قلت له: أنا هنا مجبر وبمجرد أن أنتهي من شيطاني هذا سأتخلى عن هذا العالم اللعين.

قال لي وهو يضحك:

«هذا العالم له باب واحد وهو للدخول فقط»

لم يعجبني كلامه وقاطعته أسبوعًا كاملًا، بعدها جاء ليصالحني وقال لي: لقد أرسلت مرسالًا لمنام أمك ليطمئنها عليك.

فقلت له بلهفة: كيف؟!

فوضع في يدي كتابًا وقال: اقرأ وتعلم.

فرفضت وقلت له: لن أقرأ كتابًا من كتبكم لغير حاجة وأمي مؤمنة وستصبر على بعدي حتى أعود.

كنت في أول سنة من بقائي معه أصلي ولم يكن (عمار) يرفض لكنه كان يخرج من المكان عندما كنت أفعل ذلك لكن وللأسف في السنتين الأخيرتين أهملت الصلاة بسبب ما كنت أقرؤه في تلك الكتب اللعينة.

حل شهر رمضان خلال السنة الأولى وهي المرة الأولى التي بدأت

فيها ملاحظة بعض التغيرات في الروتين اليومي. فقبل الشهر المبارك بأيام أحضر (عمار) كمية كبيرة من الأرز وبعض المؤن وقال:

«سوف نغير نوعية الأكل في رمضان لأجلك»

فرحت في البداية لكني لم أكن متيقنًا من صدق كلامه عندما قال إن التغيير كان لأجلي وما زادني يقينًا التغيرات الأخرى التي حدثت مثل تخزين كمية كبيرة من الماء داخل المنزل في براميل وكأنه يستعد لغارة جوية سوف تنزل عليه من السماء. عندما انتهى (عمار) من استعداداته جلست بجانبه والعرق يتصبب من جبينه بعد حمل تلك البراميل الثقيلة وقلت له:

ما الذي يحدث؟.. ولا تخبرني بأنك تفعل ذلك من أجلي.

(عمار): لا يمكننا الخروج خلال رمضان..

قلت له: أنا محبوس هنا طيلة السنة على أية حال فما الفرق؟

(عمار): الفرق أنني سأكون محبوسًا معك ولن نحصل على الطعام أو الماء.

فقلت له: أخبرني لماذا؟

فنهض (عمار) ولم يرد على سؤالي..

رمضان كان شهرًا قاسيًا على (عمار) وكنت أحس فيه أن قواه تضعف أو تزول ولم أنتبه إلا في السنة الثانية أنه كان يحضر طعامًا يكفينا شهر رمضان بأكمله كي لا يخرج وفي السنة الثالثة فهمت أن قدرته تضعف

بسبب ربط شياطينه خلال الشهر الكريم لذلك سألته مرة:

لماذا لا أخرج في رمضان فالشياطين تربط في السماء بمن فيها ذلك الشيطان الذي ينتظرني؟ فقال لي:

«اذهب وجرب فأنا لن أمنعك»

لم يكن إيماني قويًّا في تلك الفترة لذلك لم أجرب لكنني أعرف اليوم أن قول الله حق وأن ذلك الشيطان كان يربط معهم طيلة شهر رمضان المبارك ولو كنت قد خرجت لما أصبت بأذى لكن وجودي مع (عمار) وكتبه جعلني أفقد إيماني وجعلني أسيرًا لهم.

كان (عمار) يقفل الباب علي عند المغرب ولا يفتحه إلا مع الشروق لكن خلال شهر رمضان لم يقم بذلك بل كان يطلب مني ترك المكتبة والجلوس معه للحديث دائمًا خلال الليل. ومن تلك الأحاديث المطولة كل ليلة أخذت علمًا كثيرًا منه لم أجده في تلك الكتب بل في الواقع أجابني على تساؤلات كثيرة لم أجد لها تفسيرًا خلال القراءة. كان (عمار) مختلفًا خلال رمضان كان متعبًا ويبدو مريضًا أو مخمورًا. لم أسأله كثيرًا عن حالته لأني كنت أعرف أنه لن يجيب. أخرج (عمار) في إحدى الليالي علبة سجائر وبدأ بالتدخين وهذه كانت المرة الأولى التي أراه فيها يدخن. مد لي سيجارة وقال: خذ واحدة..

فقلت له: أنا لا أدخن.. ثم ألم تختَرْ غير هذا الشهر الفضيل كي تبدأ بالتدخين؟

فقال: ومن قال لك إني لا أدخن من قبل؟

فقلت: لم أرك تدخن من قبل..

فقال: أنا لا أدخن إلا في الليل عندما تكون محبوسًا في المكتبة.

فقلت له: لم تخبرني يا (عمار) عن سبب حبسك لي داخل المكتبة من الغروب للشروق من قبل.. لماذا؟ هل تظن أني سأهرب؟

فضحك (عمار) بقوة ورفع رأسه ونفخ سحابة من الدخان وقال:

إلى أين ستهرب وذلك الشيطان بالخارج؟

فقلت له: لماذا إذًا.. لماذا تغلق الباب؟

فقال: هناك أحداث تحدث في الليل لا أريد منك أن تراها.

فقلت له: مثل ماذا؟

فقال: ما زال الوقت مبكرًا كي تعرف

قلت له: ولماذا لا تدخن إلا ليلًا؟

فقال: التدخين في النهار يضر ب(الهالة).

وكانت هذه أول مرة أسمع بمصطلح (الهالة) فقلت له: وما هي (الهالة)؟

فقال: أحد مصادر قوتي التي جعلتني أوقف ذلك الشيطان بالخارج.. كل إنسان يملكها لكن قوتها تختلف من شخص لآخر.

فقلت له: وكيف تعرف ما إذا كانت هالتك قوية أم لا؟

فقال: بفحصها من قبل شخص ب(هالة) مفعلة.

فقلت: مفعلة؟

قال: نعم مفعلة.. كل الهالات سواء قوية أو ضعيفة تكون في طور الخمول ويستلزم عليك تفعيلها كي تستفيد منها.

فقلت له: هل تستطيع فحص هالتي؟

فقال: هالتك قوية جدًّا ولا أحتاج لفحصها.

فقلت له: كيف عرفت؟

فقال: عندما تفعل هالتك تستطيع الإحساس بالهالات الأخرى بسهولة.. هل ترغب مني أن أفعل هالتك؟

فقلت: لا أعرف.. ماذا سأستفيد؟

فقال: سترى العالم بشكل مختلف.. ستتضاعف قدراتك الحسية والذهنية والجسدية.. ستصبح قادرًا على القيام بأمور لم تكن تستطيع القيام بها من قبل. سكت ولم أرد عليه..

أكمل كلامه وقال:

وفوق كل ذلك سوف تجد سهولة أكبر في قراءة تلك الكتب وفهمها ولن تصاب بالإرهاق والرغبة في النوم كثيرًا حتى أنك مع قليل من التدريب ستتحكم بأحلامك وفي مراحل متقدمة أحلام غيرك.

فقلت: لهذه الدرجة؟

فقال: وأكثر من ذلك بكثير.

فقلت له: وما المطلوب مني القيام به.

فقال: هالتك قوية وتفعيلها لن يستلزم الطرق المعقدة التي نستخدمها مع الهالات الضعيفة لذلك لا أحتاج منك سوى القبول.

فقلت: قبول ماذا؟

قال: قبولك بأن أفعل هالتك

فقلت: أقبل ذلك..

فنهض (عمار) من مكانه ووضع كفه على جبيني وأنا أقول في نفسي: يبدو أن هذا الرجل يتسلى بي ويريد أن يضيع الوقت قليلًا.

ولكن خلال وضع يده على رأسي سمعت صوتًا لن أنساه جعلني ألتفت يمينًا ويسارًا مما دفع (عمار) لسؤالي وقول:

ماذا بك.. هل سمعت شيئًا؟

فقلت له: نعم طنينًا قويًا وكأنه طنين ذبابة تطير.

فضحك (عمار) ورفع يده من على رأسي وجلس وأشعل سيجارة وقال:

«مبارك لقد تفعلت هالتك والذبابة هي الدليل».

فقلت له: أعتقد أن الذباب دليل فقط على أننا لم نستحم لفترة؟

فضحك (عمار) بقوة وأخذ يسعل ويكح من شدة الضحك ثم قال: الصوت الذي سمعته هو ذبابة تطير في آخر الغرفة.

فسكت بتعجب ثم قلت:

ما هذه الذبابة العجيبة التي تطن بهذه القوة؟

فقال: الذبابة طبيعية لكن أنت الآن لم تعد طبيعيًا وحواسك كذلك.

فقلت له: هل هذا من فعل الهالة؟

فقال: نعم.. وسوف تبدأ من الآن ملاحظة أشياء غريبة فلا تجزع وتذكر أن قدراتك الآن اختلفت.

لم أفهم معنى كلامه حتى حان وقت السحور ووضع (عمار) أمامي الطبق اليومي المعتاد وهو حساء مع قليل من الأرز لا أعرف محتواه. لكنه كان تغييرًا إيجابيًا عن تلك الهريسة. لكن هذه المرة عندما تذوقت الحساء كان طعمه مختلفًا. كان ألذ وكانت النكهات واضحة ويمكنني تمييزها فقلت له:

ماذا وضعت في الحساء اليوم.. طعمه ألذ بكثير من السابق؟

فقال: لم أضع شيئًا وهو الحساء نفسه الذي نتناوله منذ بداية رمضان.

فقلت له: مستحيل.. الطعم مختلف تمامًا.

فقال: أخبرتك أن تفعيل هالتك سيغير أمورًا كثيرة في حياتك وهذا الحساء أبسطها.

أخذت رشفة ثانية من طبق الحساء ثم قلت:

بصل.. ملح.. قليل من الفلفل.. وعنصر غريب لا أعرفه

فقال (عمار): صحيح.. هذه مكونات الحساء.

فقلت: كيف يمكنني معرفة ذلك الآن؟

فقال: يبدو أنك لا تدرك معنى تفعيل الهالة.. انسَ الموضوع الآن ولنذهب للنوم.

لم أنم مباشرة تلك الليلة وعدت للمكتبة للقراءة وكانت المفاجأة عندما بدأت بإكمال كتاب قد بدأت بقراءته منذ أيام. فقد وجدت أن فهمي للكلمات والمعاني قد أصبح أعمق وقدراتي على القراءة تطورت وأصبحت أنهي صفحات أكثر في وقت أقصر بكثير. وكنت أحفظ وأستوعب كل كلمة بطريقة أخافتني في البداية لكن مع الوقت بدأت أعتاد على قدراتي الجديدة وأستمتع بها. أخبرني (عمار) مرة في إحدى ليالي رمضان أنني يجب أن أخفي اسمي واسم أمي على أي ساحر كي لا يؤذيني فقلت له أنا أعرف اسمك فقال (عمار) ليس باسمي إنه الاسم الذي اخترته ليمثلني أمام بقية السحرة وأنت يجب أن يكون لك اسم غير اسمك كي لا يصلوا إليك عندما تصبح منا.

فصرخت فيه بقوة وقلت: لن أصبح ساحرًا !!

فرد بهدوء وقال: اختر اسمًا حتى إن كنت لا تريد أن تصبح ساحرًا..

سكت.. ثم قلت: كيف أختار لي اسمًا؟

قال: ما هو شعورك الآن؟

قلت له: أشعر بالخوف..

فقال: اسمك من الآن فصاعدًا هو (خوف) ولن أناديك بغيره.

ومنذ ذلك الحين وأنا في عالمهم معروف باسم (خوف).

لكني اكتشفت لاحقًا أن (عمار) هو اسمه الحقيقي بالفعل ولم يكن يخفيه على أحد وما زلت إلى هذا اليوم لا أعرف لماذا أخبرني بأن اسمه الحقيقي ليس ب(عمار).

انتهاء شهر رمضان المبارك كان عيدًا حقيقيًّا ل(عمار) فقد خرج من الباب صباح العيد وهو مسرور جدًّا وكأنه قد خرج للتو من السجن. كنت أراقبه من النافذة وأحسده على تلك الحرية. عاد (عمار) للمنزل وغير ملابسه ليخرج فقلت له:

إلى أين؟

فقال وهو يلبس عباءة بيضاء جديدة:

هذه أول مرة تسألني مثل هذا السؤال.. هل أصبحت ولي أمري الآن؟

فقلت له: لا تراوغ يا(عمار) أين ستذهب؟

فخرج من الباب وهو يضع عمامته ويقول:

لن أتأخر.. عد وأكمل القراءة حتى أعود.

خرج (عمار) من المنزل وتركني في صباح العيد الأول ولم أكن أريد القراءة في ذلك الوقت لكني لم أعرف بماذا يمكنني أن أقضي وقتي. لاحظت أن (عمار) خرج ولم يغلق الباب ولم أستطع إغلاقه لأن المقبض

كان خارج المنزل ولم أقدر على الإمساك به دون الخروج عن حدود المنزل فتركت الباب مفتوحًا. بعد عدة ساعات دخل علي رجل أسمر البشرة طويل القامة وقال:

أين (عمار)؟!

فقلت له: خرج

فقال: إلى أين؟

فقلت: لا أعرف..

فغضب وقال: أخبره أن (فاطمة) تبحث عنه !

فقلت له: حسنًا

وخرج الرجل وأغلق الباب في طريقه..

عاد (عمار) بعد خروج الرجل بساعة تقريبًا. وعندما دخل أخبرته بما قاله لي ذلك الرجل ولم يكن مهتمًا. وضع (عمار) أمامي قدرًا مغلقًا وقال:

افتح القدر ففيه مفاجأة..

تبسمت ومددت يدي نحو غطاء القدر ورفعته وأنا أبتسم لكن سرعان ما تبدلت ابتسامتي لحزن عندما رأيت تلك الهريسة المقرفة مرة أخرى وقلت بغضب:

ما هذا يا (عمار)؟!

فقال وهو يبتسم: طعامنا المفضل.. يمكننا العودة الآن لتناوله بعد انتهاء رمضان.

فقلت له بعد ما رميت الغطاء على الأرض ونهضت من أمامه:

الطعام المفضل لك أنت وليس لي !!

دخلت المكتبة وبدأت القراءة بغضب وبعد دقائق دخل (عمار) المكتبة وقال:

المغرب اقترب.. هل أنت واثق أنك تريد البقاء الليلة دون طعام؟

فقلت له دون الالتفات إليه: لن آكل من هذه الهريسة مرة أخرى لقد سئمت منها.

لم يرد (عمار) علي وخرج وأغلق الباب..

مضت الأيام والشهور وانقضت سنة أخرى مع (عمار) وأصبح يومي روتينيًّا ولا يوجد فيه غير الكتب وبعض الحوارات الجانبية مع (عمار) بالإضافة لتلك الهريسة المقيتة التي خضعت لها عندما فتك الجوع بأحشائي بالرغم من تحسن طعمها قليلًا بعد تفعيل هالتي.

السنة الأخيرة مع (عمار):

السنة الثالثة والأخيرة مع (عمار) كانت الأجمل بين تلك السنين فقد اعتدت كثيرًا على نظام حياته وكنت قد بدأت خلالها بالاستمتاع بالقراءة لأن علمي قد تعمق وأصبح غزيرًا فيها مما كان يدفعني لتعلم المزيد والمزيد حتى أني بدأت أستسيغ تلك الهريسة والتي بعد تفعيل هالتي لم تكن بذلك السوء.

خلت السنة الأخيرة مع (عمار) من الأحداث المميزة لكن أذكر أنه

في إحدى الليالي وخلال سهري على أحد الكتب سمعت أو توهمت أني سمعت أحدًا يتكلم مع (عمار) فنهضت من على الكرسي ووضعت أذني على باب المكتبة لأسمع بوضوح أكثر فتوقف الحوار بين (عمار) والصوت الآخر والذي بدا لي وكأنه صوت امرأة لكني لم أكن متيقنًا من أنها كانت امرأة في ذلك الوقت ولم أكن متيقنًا من أني سمعت حوارًا من الأساس لذلك عدت وأكملت قراءتي للكتاب الذي كان بين يدي.

في الليلة التالية تكرر ما حدث معي في الليلة السابقة لكن هذه المرة تيقنت من أن (عمار) كان يتحدث مع امرأة لكن حديثهما لم يكن واضحًا. حاولت الإنصات قدر استطاعتي لكني لم أستطع فاستغربت كثيرًا فبعد تفعيل هالتي كنت أسمع أدق الأصوات لكني لم أستطع سماع ذلك الحوار الذي يدور بينهما. قررت في اليوم التالي مواجهة (عمار) وسؤاله عن ما سمعت فأنكر وقال:

يبدو أنك تتوهم.. أخبرتك أن تفعيل هالتك سيجعلك تسمع أشياء غريبة لكن هذه المرة أنت تتوهم.

فقلت له: أنا لا أتوهم وأنت كنت تتحدث مع امرأة.. لماذا تخفي علي هذه المعلومة ماذا تظن أني سأفعل؟

فقال: لا يوجد امرأة وافعل ما شئت.

خرج (عمار) من المنزل بعد هذه الجملة غاضبًا لكني لم أكترث وبدأت أبحث في أرجاء المنزل عن آلة حادة. كنت أريد أن أحدث ثقبًا في الباب كي أرى بعيني مع من كان يتحدث. بعد بحث طويل وجدت مسمارًا

صغيرًا لكن رأسه حادٌّ وبدأت بحفر الباب. عاد (عمار) قبل أن أنتهي من إحداث الثقب اللازم فخبأت المسمار في جيبي وقررت أن أقوم بالحفر كل يوم عندما يخرج. تكرر الحوار تلك الليلة لكن هذه المرة لم أنهض كي أسترق السمع وبقيت مكاني أقرأ. سمعت هذه المرة ضحكات المرأة مع (عمار) وجاءني إحساس أنهما يضحكان علي.. لا أعرف لماذا لكن كان ذلك إحساسي في تلك اللحظة.

استمررت بالحفر لعدة أيام حتى أحدثت الثقب اللازم في الباب وكنت متشوقًا لكشف (عمار) ومواجهته بالحقيقة. عند حلول المساء بدأت بالقراءة لكن قلبي كان معلقًا بمعرفة من هي تلك المرأة التي كان (عمار) يقضي معها الليلة بطولها. انتظرت وطال انتظاري ولم أسمع شيئًا.

توقعت أنها كانت مشغولة تلك الليلة وسوف تحضر في الليلة التالية لكنها لم تحضر ولم أسمع صوتها مرة أخرى.

الشهر الأخير مع عمار:

لم أكن أدرك أن أيامي مع (عمار) قد شارفت على الانتهاء وكنت في تلك المرحلة قد تمكنت كثيرًا من علومهم حتى أن (عمار) عرض علي أن أكون مساعدًا له في حال ما إذا وجدت ما أبحث عنه في كتبه لكنني رفضت بشدة وقلت:

لقد أخبرتك من قبل بأني لست بساحر يا(عمار) ولن أكون في يوم كذلك !

فقال لي: ولكنك تملك الآن من علومهم ما يجعلك أستاذًا عليهم جميعًا.

فقلت له: لكن هذا لا يكفي كي أبيع نفسي وديني.

فقال متهكمًا: أي دين، أنا لم أشاهدك تصلي منذ سنة؟!

فقلت له: أعترف بتقصيري لكن هذا ليس سببًا يجعلني أندفع نحو الهاوية.

أنهى (عمار) الحديث بابتسامة عندما أدرك أنني لن أسلك طريقه باختياري أبدًا.

قرر (عمار) الخروج بعد هذا الحوار من المنزل لإحضار الطعام فقلت له:

كيف تستطيع أن تخرج وذلك الشيطان بالخارج ألا تخشى أن يؤذيك؟

فضحك وقال: هل تستطيع النملة أن تؤذيك؟!

فقلت له: لا

فقال: شيطانك هذا بالنسبة لي أقل من نملة.

فقلت له ساخرًا: ومن أين لك كل هذه الثقة؟!

فرد علي وقال: هل تريد إثباتًا؟

فقلت له: وكيف ستثبت لي ذلك؟!

قال وهو يبتسم: سأسمح له بالدخول عليك الآن.

فسكت وبدأ قلبي بالخفقان وقلت له: لا تتأخر على مشوارك.

فضحك بصوت مرتفع وخرج..

الأسبوع الأخير مع عمار:

لم يكن هذا الأسبوع خارجًا عن المألوف لكن حدث فيه أحداث غريبة لم أشهدها من قبل كان أبرزها أن (عمار) تركني لمدة ثلاثة أيام وحدي ولم يخبرني قبلها بأنه سيغيب كل تلك المدة لذلك عندما عاد قلت له بغضب:

لماذا لم تخبرني أنك ستغيب كل هذه المدة؟!! لقد كدت أموت من الجوع!

فقال بكل برود: لكنك لم تمت.. ولقد تركت لك ما يكفيك من الماء.

فقلت له بغضب: لماذا لم تخبرني؟!.. ماذا كنت ستخسر؟

فضحك وقال: هل تريد بعض الهريسة؟

اليوم الأخير مع (عمار):

قد أكون واهمًا لكني أحسست بطريقة ما أني سأرحل عن هذا المكان في أي لحظة. حتى (عمار) كان يتعامل معي في تلك الآونة بطريقة مختلفة وكأننا سنفترق قريبًا. لكنني لم أعرف أن ذلك اليوم هو اليوم الذي سأجد فيه مفتاح خلاصي. مددت يدي إلى أحد الرفوف كعادتي في صباح ذلك اليوم وسحبت كتابًا كبيرًا مغلفًا بطبقة جلدية سوداء نصحني (عمار) بقراءته ووضعته على الطاولة وفتحته وبدأت بالقراءة. كان (عمار) يجلس في غرفة المعيشة يدخن في النهار على غير عادته فبدأت بالقراءة كالمعتاد.

الساعة الأخيرة مع عمار:

كنت أقرأ وأنا أتوسد يدي وأنظر في تلك الصفحات الكبيرة. بدأ المطر بالهطول بغزارة وهذا لم يكن غريبًا في تلك المنطقة. عم الهدوء المكان ولم أكن أسمع سوى نفخات (عمار) لسيجارته وكنت أقول في نفسي:

«لماذا يدخن الآن.. لم أرَه من قبل يفعل ذلك في وضح النهار؟»

أكملت قراءتي ولم أفكر كثيرًا في سبب تدخين (عمار) كان الكتاب يتكلم عن تاريخ السحر في جنوب الجزيرة ولم يكن يحمل الكثير من المعلومات العملية لذلك شعرت بالملل خلال القراءة وفكرت أكثر من مرة في إغلاقه والبحث عن كتاب آخر لكني تذكرت كلمة قالها لي أبي عندما بدأت القراءة أول مرة في صغري:

«لا تغلق كتابًا أبدًا إذا بدأت بقراءته حتى تنهيه»

أكملت القراءة حتى وقعت عيني على ذلك النص:

«تسلط من سواد ضاحك الثغر «دجن»

ينهض من تراب وسيده يبكي في عدن»

الدقيقة الأخيرة مع عمار:

لم يكن (عمار) شخصًا عاطفيًّا بطبعه كما هو الحال مع معظم الرجال

لكن الدقيقة الأخيرة التي قضيتها معه كانت في عناق طويل لم نتحدث خلالها لم يقل غير جملة واحدة عندما أنهى عناقه لي:

«سأفتقدك يا (خوف)..»

توجهت بعدها لتلك السيارة التي ظلت مركونة لثلاث سنوات..

رحلة العودة لـ(عمار)

توجهت للمطار بعد ما اشتريت بعض التين المجفف لأني لم أجد تينًا في ذلك الوقت فهو لم يكن موسمه، ركبت أول طيارة باتجاه بلد (عمار) وخلال الرحلة أحسست بضيق في التنفس أكثر من مرة. الأولى كانت عندما كنت في طريقي للمطار والثانية كانت عندما ركبت الطائرة والأخيرة عندما خرجت من بوابة المطار بعد وصولي لمسقط رأس (عمار).

بحثت عن سيارة للأجرة لتأخذني مباشرة لمكان إقامة (عمار) لكن السائق رفض وقال لن أوصلك إلا للمدينة المجاورة لهذا العنوان، فوافقت على مضض وسار بي إلى المكان الذي اتفقنا عليه ومن هناك قررت أن أستأجر سيارة من تلك البلدة الصغيرة لكن بعد رحيل سائق الأجرة اكتشفت أن تلك المدينة لا يوجد بها سيارات للأجرة فهي أقرب للقرية من المدينة. تجولت فيها بحثًا عن أحد يمكنه إيصالي لوجهتي لكني لم أجد من لديه الاستعداد للقيام بذلك، بدأت أسأل الناس عن إمكانية توصيلي لكن بعضهم رفض وبعضهم وافق لكنه غير رأيه عندما عرف وجهتي. لم يبقَ على المغرب الكثير عندما بدأت أشعر أني في ورطة حقيقية.

ذهبت للمسجد وصليت المغرب وبقيت في المسجد أفكر في مخرج من هذا المكان فاقترب مني رجل وجلس أمامي وقال لي:

«هل تبحث عن شيء؟ تبدو غريبًا ولست من هنا»

فأخبرته عن رغبتي بالذهاب لمنزل (عمار) دون ذكر اسم (عمار) لأنه حذرني من نطق اسمه لأحد فقال لي الرجل:

هل تعرف أحدًا هناك؟

فترددت في الإجابة وقلت:

نوعًا ما..

فقال: هل تبحث عن (عمار)؟

فسكت..

قال لي: يا بني (عمار) هذا إنسان سيئ ولا أنصحك بالذهاب إليه.

فحكيت له حكايتي فقال لي: أين إيمانك بالله؟!

فقلت: ونعم بالله لكن..

فقاطعني وقال: لا يوجد «لكن» مع الإيمان بالله.. راجع نفسك يا بني فهذا الطريق آخره هلاك.

فسكت ولم أستطع الإجابة..

مضى الرجل في طريقه وخرجت من المسجد وأنا أنتظر الفرج لكني لم أجد حلًّا، رُفع أذان العشاء وصليت وشاهدت الرجل الذي

كلمني ينظر لي بعين ثاقبة من بين جموع المصلين الذين بدؤوا بالخروج من المسجد لم أحب تلك النظرة. خرجنا من المسجد فرأيت شخصًا يركب سيارته فذهبت إليه مسرعًا وعرضت عليه استئجارها منه فرفض وعندما ألححت عليه قال:

لا أريد منك مالًا!

فقلت: وماذا تريد إذًا؟!

قال: أن ترحل من هنا فإذا أردت أن أعود بك للعاصمة فقط فسوف آخذك إلى هناك.

فرفضت وغادر الرجل وأصبح الشارع خاليًا من الناس وعم الهدوء المكان وكان الظلام شبه دامس عدا إنارة المسجد الخفيفة التي كانت معكرة بسبب بعض الحشرات الطائرة التي التصقت بنورها وكان صوت جنادب الليل هو الصوت الوحيد حولي وعندها أحسست بضيق في التنفس يصاحبه صداع شديد جعلني أنزل من شدة الألم على ركبتي وبعدها سمعت ضحكات تأتي من الظلام المحيط بي.

زاد الألم حتى أُغمي علي، استيقظت في الصباح في منزل لا أعرفه فخرجت دون أن أعرف من حملني إليه وقررت الذهاب لمنزل (عمار) مشيًا على الأقدام فالمسافة لا تزيد على عشرة كيلومترات فبدأت بالتوجه نحو منزله لكن كان الطريق شاقًّا لأنه كان يتحرك ارتفاعًا ولم يكن مستقيمًا. عندما انتصف بي الطريق سمعت صوتًا يقترب من خلفي

فالتفت فوجدت خيال رجل يقترب مني وعندما وصل ذلك الخيال عندي رأيت أنه كان من حدثني بالمسجد.

قال لي: سوف أمشي معك حتى تصل.

فقلت له: لا، وشكرًا لا أريد العودة.

فقال: لا تقلق سوف أوصلك إلى حيث تريد فأنا لا أريد أن تموت هنا في هذا الطريق الموحش بسببي.

صاحبني الرجل في وجهتي وتحدث معي في الطريق وحاول إقناعي بالعودة لكني لم أستجب له وعرفت أنه من أخذني لبيته البارحة فشكرته على ذلك. عندما وصلنا لبيت (عمار) ضاق صدري قليلًا لأني تذكرت تلك السنوات التي كنت فيها حبيس مكتبته وتذكرت (دجن) الواقف خارج داره مشلولًا لا يقوى على الحراك منذ أكثر من سنة. ودعت الرجل وسألني إذا كنت أريده أن ينتظر فقلت له:

شكرًا لقد كنت عونًا كبيرًا ولا أريدك أن تغيب عن منزلك أكثر.

قبل أن يرحل الرجل نظر لبيت (عمار) بطريقة غريبة وكأنه يرى كومة من القمامة المكشوفة وقال:

«سيأتي يوم ونقتص فيه منك أيها المشعوذ»

توجهت لباب بيت (عمار) وقبل أن أطرق سمعت صوته من وراء الباب يقول:

هل أحضرت التين؟!

فابتسمت ودخلت لمنزله..

دخلت لمنزل (عمار) ومددت يدي لمصافحته لكنه قابلني بعناق وترحيب حار دفعني للابتسام رغم ضيقي. مددت له التين فضحك وقال:

ألم تنسَ؟!

جلست معه وحكيت له ما حدث معي ومع أخي وأمي.. فتجهم وقال:

القرين المحرر من أقوى الشياطين فهو ضعيف عندما يكون مقيدًا بصاحبه لكن عندما يتحرر يصبح أقوى وأشرس من أي شيطان آخر.

فقلت له: ألا تستطيع إيقافه؟

فقال: قرينك لم يأتِ معك وهذا دليل على أنه يريد أن يلحق الأذى بأهلك.

فقلت له: وما العمل يا (عمار)؟

سكت (عمار) لفترة ثم قال:

الحل الوحيد الذي أراه لن يعجبك.

فقلت له: سأقبل بأي شيء يا (عمار) أمي في خطر وكل دقيقة أتأخر فيها أُعرض حياتها لخطر أكبر.

قال لي: لا يمكنك قتل قرينك لأنك ستموت معه.

قلت له: لا يهم المهم أن أُنقذ أمي منه.

قال: إذا كنت تريد فعلًا المخاطرة فجرب الحل الذي أراه.

قلت: وما هو حلك؟

قال: لا يوقف القرين المحرر إلا قرين محرر آخر يكبره في العمر.

فقلت له: ومن أين لي بقرين محرر وعمره أكبر من قريني؟

فأشار برأسه إلى الخارج وهو صامت

فصرخت فيه: (دجن)؟!

قال: ليس أمامك إلا هذا الحل

قلت: مستحيل.. كيف يساعدني بعد ما حبسته؟!

قال: تكلم معه فهو يستطيع سماعك وحاول أن تعرض عليه صفقة لا يستطيع رفضها. فالشياطين تؤمن بالعطاء بمقابل

فقلت: وأي نوع من الصفقات يمكن أن يعقده الإنسان مع الشياطين؟

قال: لا تقلل من شأنها فهي ليست غبية ومصلحتها تهمها بالدرجة الأولى و(دجن) الآن مكسور ومحطم وعلى يقين أنه هالك ستكون أنت بالنسبة له طوق النجاة وليس حبل المشنقة..

فقلت له: وكيف أعرف بأنه وافق على عرضي أو لا قبل أن أحرره؟

قال لي: لن تعرف يجب أن تخاطر

فجلست أفكر مدة تجاوزت الساعة و(عمار) جالسٌ أمامي يأكل التين الذي أحضرته له.

قلت لـ(عمار) بعد سكوت طويل:

وماذا سيحدث لو رفض وحررته؟

فرد (عمار) وفي فمه قطعة من التين وبكل برود وقال:

سيقتلك طبعًا..

نظرت إليه بتعجب ثم قال:

ماذا.. هل تريد مني أن أكذب عليك؟

قلت له:.. سأخرج

فقال (عمار): هل أنت واثق؟

فقلت له: لا لكن ليس أمامي خيار آخر.

خرجت بعد أن طلبت من (عمار) أن يعيد جثتي لأهلي ولا يدفنني هنا إذا أصابني مكروه فقال:

تفكيرك غريب يا(خوف)

فقلت له:هل تعدني بذلك؟

فقال: لا تقلق لن أدفنك هنا

خرجت وبدأت التحدث في الهواء وقلت:

(دجن).. أنا (خوف) الذي حبسك وأنا فقط من يستطيع أن يحررك هل توافق أن تكون تحت أمري إذا حررتك؟

لم أعرف ماذا أقول بعد هذا الكلام لكن هذا ما خطر في بالي تلك اللحظة، ثم أضفت وقلت:

لكن قبل أن أحررك أريدك أن تعيد تقييد قريني وهذا ثمن حريتك والآن سوف أقوم بتحريرك..

أحضر (عمار) لي مرآة ووضعها لي بالخارج ودخل المنزل فانتظرت وقمت بتنفيذ طريقة التحضير عندما غابت الشمس وبعد انتهائي بلحظة وجدت نفسي ملتصقًا بالجدار وعنقي يكاد يتحطم من الضغط وصوت أنفاس غاضبة تفح في أذني وبعد ثوانٍ قليلة من هذا الحصار الخانق سمعت صوتًا في أذني يقول:

«مطاع!»

وسقطت بعدها على الأرض مباشرة.

خرج (عمار) وهو يضحك وفي فمه آخر حبة من التين الذي أحضرته له وهو يقول:

«مبارك..»

رمى (عمار) كيس التين الفارغ علي وقال:

رافقتك السلامة!

توجهت للقرية مشيًا على الأقدام وحرصت على المرور بمنزل ذلك الرجل الذي رافقني لمنزل (عمار) لأشكره وأودعه لأن استقباله كان لطيفًا جدًّا وقد ساعدني أكثر من مرة. وجهني الرجل بعد وداعي له لمنزل شخص قام بإيصالي للمطار ومن هناك عدت لبلادي على أول رحلة.

عودة (دجن)

وصلت لمطار مدينتي عند منتصف الليل.. المطار كان هادئًا.. ركبت سيارة أجرة.. توجهت للمنزل.. دخلت.. ذهبت مباشرة لغرفتي ونمت ولم أقابل أحدًا ذلك اليوم. استيقظت ظهر اليوم التالي وكنت مرهقًا جدًّا وفتحت عينيّ ورأيت أمامي منظرًا مزعجًا، رأيت دجن جالسًا أمامي وكان متشكلًا بهيئة ذلك الرجل الغريب. نهضت وتوجهت لدورة المياه وحاولت ألا أدير له بالًا لأني أذكر أن (عمار) أخبرني من قبل أن الشياطين تضعف أمام من لا يخاف منها أو يجزع لرؤيتها، دخلت الحمام ولم أكترث لوجود (دجن) بالرغم من أن رؤية وجهه بعد هذه المدة أعادت علي ذكريات لم أكن أريد تذكرها. (دجن) من الشياطين القليلة التي تملك الجرأة للتشكل بكل راحة لمحادثة إنسان بلا تكلف في وضح النهار، لغته عربية لكن لهجته كانت خليطًا غريبًا من اللهجات المحلية.

بعد ما خرجت من الحمام قال لي (دجن): نعيمًا!

في تلك اللحظة نسيت أو تناسيت أنه شيطان وقلت له:

ماذا تريد؟.. ومن سمح لك بالدخول؟

قال: إحنا بينا اتفاق..

فقلت له وأنا أغير ملابسي:

وما هو المطلوب مني الآن؟

قال: اعتبر موضوع قرينك منتهي والموضوع ما راح يأخذ مني ثواني وراح أربطه لك لكن ما تكلمنا عن الاتفاق الجديد؟

فقلت: أي اتفاق؟

فقال (دجن): باقي شيطان ثاني.. ما تبي أخلصك منه؟

فقلت له: عن أي شيطان تتحدث؟

قال: اللي جالس فوق رأس أمك المسكينة وجالس يأكل من صحتها كل يوم وينتظر بس إشارة من الساحر عشان يقتلها..

سكت قليلًا ثم قلت:

أليس قريني هو من يهدد حياة أمي؟

فقال: لا يا حبيبي أمك مرسل لها شيطان ثاني وقرينك عنده مشاغل ثانية وما هو فاضي لك أنت وأمك.

فقلت له: تخلص منه أيضًا..

فقال وهو يبتسم: آسف الاتفاق كان على واحد بس!

أدركت وقتها أن (دجن) ينوي البقاء معي بأي شكل وسيفتعل المشكلات كي يضمن بقاءه حولي وعدم تجميدي له بعد ما ينتهي من

مهمته وكان يبدو أنه يريد تعليق مصيره بمصيري لأن ذلك هو الضمان الوحيد لديه للبقاء حرًّا طليقًا. حاولت أن أراوغه كما كان يراوغني فقلت له:

ماذا تقصد.. واحد فقط؟

فقال: اختر شيطانًا واحدًا بس.. قرينك أو المرسل لأمك..

لم أفكر كثيرًا وأعطيته الأمر بالتعامل مع الشيطان الذي يهدد أمي لحين تفكيري بحل أتعامل فيه معه ومع قريني المحرر. اختفى (دجن) في ثانية بعد ما أعطيته الإذن بالتخلص من شيطان أمي بدل قريني، وبعد دقائق عاد وعلى وجهه تلك الابتسامة اللعينة وقال:

خلاص تم!

وقبل أن أسأله عن ما قام به بالتفصيل انقض عليه شيء ما وبدأ (دجن) بالعراك معه بشراسة، أحدث هذا الصراع فوضى عارمة في غرفتي مما دفعني للجوء إلى دورة المياه هربًا من تلك الفوضى التي دبت في غرفتي. أقفلت علي باب الحمام وجلست أسمع الصراخ والعويل العالي الذي كان يأتي من الغرفة وبعد دقائق توقف الصوت وعم الهدوء أرجاء المكان وفجأة بدأ باب الحمام بالاهتزاز بسبب ضرب قوي وارتطام متكرر على الباب ثم انقطع الضرب وعاد الصراخ والعويل داخل الغرفة بصورة أشد. لحسن الحظ أن أبي وأخي لم يكونا موجودين في المنزل ذلك الوقت. عندما توقف الصوت نهائيًا خرجت وأنا أسحب خطواتي عبر

هدوء عم الغرفة التي انقلبت رأسًا على عقب. نظرت حولي فلم أجد أثرًا ل(دجن) لكن بعدها بقليل سمعت صوت (دجن) المرهق يقول بأنفاس متقطعة:

«قرينك هذا لعين وأنا ربطته لك على حسابي هذه المرة.. ومن اليوم ورايح أنت لي وإلى الأبد».

بقيت مع (دجن) بعد حادثة القرين لفترة نلتقي وقتما يشاء هو وكان يحاول في كل مرة إثارة الرعب في قلبي لكنني لم أعد أهتم أو أتأثر لحركاته لأني بدأت أعتاد عليها، فقال لي (دجن) في أحد الأيام:

ما تخاف إني أموتك في أي لحظة؟

فرددت عليه وقلت:

وأنت؟.. ألا تخشى أن أنطق اسمك وأشلك في أي لحظة؟

فغضب (دجن) وصرخ صرخة كانت تشبه صرخة الحيوان وقال:

أنت عبدي!

فقلت له: أنا عبد لله وحده وأنت لست سوى خلق من خلقه.

فدفع بي إلى أقصى الغرفة وارتطمت بالجدار وفقدت وعيي. قد يتساءل البعض عن سبب عدم نطقي لاسمه في تلك اللحظة. بصراحة.. كنت أريد اختبار نفسي معه لأني في ذلك الوقت قد سئمت الخوف سئمت الاختباء كنت أريد أن أكسر خوفي معه ومع غيره وهذا ما حصل لي لاحقًا.

لم أكن مستغربًا لعدم قتل (دجن) لي فهو كان يريد أحدًا من الإنس ليخدمه بالرغم من أني لم أكن ساحرًا لأن هذا في الغالب دور السحرة مع الشياطين لذلك كان يريد أن يستعبدني كبقية السحرة لينتقم مني لما فعلته به في السابق ويسخرني لتسهيل رغباته في المستقبل. استمر ترويع (دجن) لي وأذاه لفترة تجاوزت الشهر. كنت صابرًا نفسيًّا لكني بدأت أتعب جسديًا. وبعد مدة تجاوزت الشهر منذ ظهوره الأول لي بعد عودتي من عند (عمار) ظهر لي في إحدى الليالي وقال:

والنهاية معك؟!

فأجبت بعفوية لأني كنت نائمًا وقلت:

أهلًا دجن؟!

فلم أسمع صوتًا أو ردًّا فعدت للنوم مباشرة.

عندما استيقظت في الصباح تذكرت ما حدث البارحة وأدركت أني قد جمدته مرة أخرى، انتظرت المساء بكل هدوء وأحضرت المرآة وحضرته مرة أخرى. لم يهاجمني (دجن) بعد التحضير ولم أسمع منه لعدة أيام حتى ظننت أن التحضير لم ينجح فأحضرت المرآة وهممت بتحضيره مرة أخرى لكني سمعت صوتًا يأتي من خلفي يقول:

وقف.. أنا هنا موجود

فقلت ببرود: جيد..

بدأت أستعد للنوم عندما تيقنت أني قد حررته مرة أخرى فبدأ يكلمني باستغراب ويقول:

ليه رجعتني؟!.. وش تبي مني؟!

فقلت له: لا أريد شيئًا منك..

فقال: ليه حررتني؟!

فقلت له: لأني لست خائفًا منك.

فقال: وش الهدف من اللي أنت قاعد تسويه؟

فقلت له: كي أثبت لك أني لست عبدًا لك أو لخوفي. فسكت ورحل..

أصبح (دجن) بعدها يعود ضاحكًا متشكلًا بشكل ذلك الرجل الغريب وكان يتكلم معي كثيرًا حتى لو كنت أتكلم مع غيره، أحسست أنه يريد أن يتواصل معي بشكل أكبر وأكثر ولم أكن أعرف سبب هذا التقرب المفاجئ، لكني لم أكن أتفاعل معه كثيرًا وكنت أتجاهله في أغلب الأحيان. عندما أحسست أنه لم يعد يخيفني بل على العكس بدأ يزعجني قررت تجميده إلى الأبد. في اليوم الذي قررت فيه تجميد (دجن) كان كعادته يتحدث عن أشياء كثيرة في الوقت نفسه وأنا أيضًا كعادتي معه لم أكن أركز في كلامه أو أنصت له وخلال كلامه المتطاير في الهواء بلا أذن صاغية قررت في نفسي نطق اسمه لأني أحسست أن وجوده لم يعد يخدمني وأن حاجتي له انتهت بعودة قريني وموت الشيطان الذي كان

يهدد أمي وكذلك تفاديًا لأي تهور منه فهو يبقى في النهاية شيطانًا مجهول النوايا. قررت ألا أمهد الموضوع وأن أنطق اسمه وهو يتكلم معي فجأة. اقتربت منه وهو يتكلم في موضوع لم أكن منصتًا له في بدايته لكني سمعت في كلامه عندما اقتربت منه شيئًا جعلني أقول له:

أعد ما قلته قبل قليل..

قال: كنت أقول لك (عمار) كان مرسل شيطان قوي لأمك هذيك الأيام لكن كان صغير وما أخذ معي وقت..

فقلت بنبرة غضب: (عمار)؟!

قال: إي (عمار).. وش فيك؟

فقلت بغضب يخالطه الهدوء:

هل أنت متيقن من أن (عمار) هو من أرسل الشيطان لأمي وهو من طلب منه إيذاءها؟

فقال: إي متأكد

فقلت له: هل صحيح أن الشياطين تنقل الإنس إلى أي مكان في لمح البصر؟

فقال وهو يبتسم: وين تبي تروح؟

قلت له: بيت الخبيث (عمار)..

الشيطان الذي حمل غصن الزيتون

في لمح البصر وجدت نفسي أمام منزل (عمار) وكان (دجن) قد تشكل بهيئته البشرية عندما وقفنا أمام مدخل البيت وقبل أن أتوجه للباب أمسكني (دجن) من ذراعي وقال لي بصوت خافت:

وش ناوي عليه؟

قلت له: لا أعرف

فقال: أنا عندي فكرة

فقلت: ما هي فكرتك؟

قال: (عمار) ما هو ساحر عادي وأنا وأنت مجتمعين ما راح نقدر عليه

فقلت: أنا أريد التحدث معه فقط

فقال: لو دخلت معك راح يشك فينا (عمار) ولو ما دخلت معك راح يسألك عني وأنت بترتبك وبتفضحنا !

فقلت: وما هو الحل برأيك؟

قال: جمدني

فقلت: ماذا؟

قال: مثل ما قلت لك.. جمدني

فقلت: ولماذا أفعل ذلك؟

قال: لو جمدتني راح يشوفني وأنا متجمد قدامه وراح يثق إنك ما زلت عدوي.

فكررت عليه السؤال: وما الهدف من ذلك؟

فقال: حررني في الليل وهو نايم وقبل كذا حط عند رأسه غصن زيتون.

فقلت: ومن أين لي بغصن زيتون؟

وفي لحظة مد يده وأعطاني الغصن وقال:

رح ووعدنا الليلة..

دخلت على (عمار) بعد ما جمدت (دجن) فضمني ورحب بي وسأل عن حالي وقال وهو يضحك:

أرى أن قرينك عاد بجانبك!

فقلت: نعم

فقال وهو مبتسم: هل كان هذا من صنع (دجن)؟

فقلت: نعم

فضحك وقال: وأين هو الآن؟

فقلت له: جمدته قبل أن أدخل عليك.

فضحك بقوة وقال: يا لك من خبيث بدأت تفهم أصول السحر!

فسكت واكتفيت بالابتسام وعيني على الشمس أنتظر الغروب.

دعاني (عمار) لمنزله وقال مبتسماً:

أنت محظوظ فلقد انتهيت للتو من إعداد هريستك المفضلة.

فقلت له: هل ما زلت تعد تلك الهريسة المقرفة يا (عمار)؟

فقال وهو يضحك: لا أستطيع الاستغناء عنها أبدًا!

تناولت العشاء معه وانتظرته حتى ينام لأضع غصن الزيتون الذي أعطاني إياه (دجن) عند رأسه لكنه أطال الحديث والسمر معي حتى غلبني أنا النوم.

تنبهت قبل الفجر وقمت مسرعًا لأجد (عمار) قد غلبه النوم أيضًا فوضعت غصن الزيتون عند رأسه وأسرعت للمرآة وحضرت (دجن) وفي لحظة انتهائي من التحضير طار رأس (عمار) أمامي وتناثر دمه في أرجاء الغرفة لطخ جزء من تلك الدماء ملابسي وخرج (دجن) بهيئته البشرية وهو مبتسم ويقول:

«سقط (عمار) ساحر السلطان وسقط مع رأسه هيبة السحار»

لم أفهم كلام (دجن) الذي كان ينظر بابتسامة مخيفة لجثة (عمار) الملقاة على الأرض والدماء ما زالت تنبع من عنقه المفصول حديثًا عن رأسه

فصرخت فيه بقوة وقلت:

لماذا قتلته؟!!

فرد وقال: إحنا جايين نلعب؟

فقلت له: لم أكن أريد قتله !!

فقال: لو ما قتلناه كان قتلنا هو !

سكت من هول الموقف ولم أتكلم.. حزنت على (عمار) لكن كلما تذكرت ما فعله بأمي خف حزني عليه.

بعد مضي دقائق قال (دجن): مشينا بس؟

قلت له: انتظر أريد أن أزور أحدًا قبل أن نرحل.

فقال: وهذا وقته؟.. مين طيب؟

فقلت: لا عليك.. انتظر هنا حتى أعود.

فقال وهو يضحك: لا تتأخر ترا أنا ما أعرف أطير بالليل

ذهبت لمنزل ذلك الرجل الذي أوصلني لمنزل (عمار) في زيارتي الأخيرة وسلكت الطريق نزولًا عبر المعبر الذي يقودني للقرية. وصلت لبيته مشيًا على الأقدام وكان الصباح وقتها قد أشرق، طرقت بابه ففتحت لي ابنته الصغيرة وقلت لها:

أين أبوك؟

فسكتت ودخلت مسرعة وبعد دقائق من الوقوف أمام الباب المفتوح

خرج لي شخص غير الرجل الذي أوصلني فسألته عن الرجل وقال:

لا يوجد رجل في هذا المنزل غيري.

فقلت: مستحيل أنا واثق من أن هذا المنزل هو منزله.

فقال: تفضل فتش المنزل..

فقلت له: لا أبدًا العفو لكني واثق أن ذلك الرجل يعيش هنا.

فقال لي: ما هو اسمه؟

فقلت له: لا أعرف

فقال لي: صف لي شكله

فوصفت له ملامح الرجل فقال باستغراب:

هذا أبي..

فقلت له: ألم أقل لك إني كنت محقًّا؟.. يبدو أنه في تلك الفترة كان يزورك.. أخبرني عن مكان منزله وسوف أذهب له بنفسي.

قال الرجل: اتبعني..

مشيت مع ابن الرجل الذي أبحث عنه لفترة حتى توقف عن المشي عندما بلغنا مكانًا بسور كبير وممتد وقال لي قبل أن يرحل:

أبي موجود خلف هذا السور اذهب وتحدث إليه.

فقلت: وكيف سأعرفه؟

فقال لي: اسأل عن (سالم)

لم أجد للسور بابًا فمشيت حتى وصلت لبوابة كبيرة عليها حارس منعني من الدخول فقلت له:

أريد أن أقابل (سالم)..

فقال: تفضل بالدخول إنه موجود بالداخل

فدخلت وصدمت من المنظر.. فقد رأيت مجموعة من القبور.. وكان قبر الرجل بينها.. لقد كنت في مقبرة القرية والرجل ميت منذ عشرة أعوام. سألت حارس المقبرة عن الرجل الذي رأيته وسألته كيف مات فحكى لي قصته.

قال حارس المقبرة:

(سالم) كان رجلًا تقيًّا وصالحًا وكان كل أهل القرية يحبونه، وعندما كان في شبابه كان هو وأخوه الأكبر مسؤولين عن مسجد القرية ويتناوبان على الأذان والإمامة فيه وكان الناس يثقون بهما جدًّا حتى ذلك اليوم الذي جاء فيه للقرية رجل غريب واشترى أحد المنازل التي كانت معروضة للبيع وسكن فيه. في البداية لم يعرف الناس أنه ساحر فقد كان يدعي الصلاح والورع وكان يعرض على الناس خدماته كعلاج السحر والربط والقراءة على المرضى والممسوسين لكن لم يكن أحدٌ في القرية يعاني من تلك الأمور لذلك لم يكن أحد يزوره أو يطلب خدماته.

وبعد مضي عدة أشهر بدأت تظهر على بعض الناس أعراض لأمراض غريبة ومشكلات نفسية لم يجد الطب لها حلولًا وبعد يأسهم وقلة حيلتهم بدأ البعض يذهب لذلك الرجل وكلما ذهب إليه أحد خرج معافى ومع مرور الوقت ذاع صيته بين أهل القرية. لم يعجب ذلك الوضع (سالم) وأخاه الأكبر لأن ذلك الرجل كان يستغل ويستنزف من الناس أموالهم دون وجه حق فقرروا الذهاب لمنزله والتفاهم معه.

طرق (سالم) الباب ففتح لهما الساحر وقال:

ماذا تريدان؟

فرد عليه (سالم) بغضب:

اخرج أنت وخزعبلاتك من القرية !

فضحك الساحر وقال: ومن أنت لتطردني؟

فقال (سالم): أنا شيخ القرية وأنت ترتكب إثمًا عظيمًا بحق نفسك وبحق أهل القرية ولن أسمح لك بالاستمرار في هذا الفجور !

فقال الساحر: أنا وأهل القرية أدرى بشؤوننا فلا تتدخل فيما لا يعنيك.

أغلق الساحر الباب بعد كلامه في وجه (سالم) فغضب أخوه الأكبر وطرق الباب بقوة فلم يفتح الساحر فكسر أخو (سالم) الباب ودخل على الساحر عنوة فلحقه (سالم) ليجدا الساحر بين مجموعة من الطلاسم وكانت رائحة المكان كريهة فصرخ فيهما الساحر وقال:

«اخرجا من هنا قبل أن تندما !»

فهجما عليه وضرباه حتى كاد يموت وسحباه لوسط القرية والدماء تسيل من وجهه وثيابه ممزقة واجتمع الناس حولهم وقال (سالم) بصوت مرتفع:

إن هذا الرجل ساحر ويخدعكم وهو الذي تسبب في مرضكم كي تلجؤوا إليه..

فغضب الناس وطردوه من القرية وأحرقوا المنزل الذي كان يقطن فيه. بعد طرد الساحر بأيام بدأت فتيات القرية بالاختفاء بمعدل فتاة أو اثنتين في الأسبوع، كنّ يختفين فقط في منتصف الليل ومهما حاول أهلهن إغلاق الأبواب وحمايتهن كنّ ما زلن يختفين وفي بعض الحالات يسمع الأهل صراخ ابنتهم قبل اختفائها. مع تكرار حالات الاختفاء اجتمع (سالم) وأخوه الأكبر مع كبار أهل القرية ليبحثوا في الأمر ويجدوا حلًّا لهذه المشكلة التي بدأت تؤرقهم.

بعد اجتماع مطول في بيت (سالم) استنتج كبار أهل القرية أن هذا قد يكون من عمل الساحر الذي طردوه انتقامًا لما فعلوه به فاقترح أحدهم أن يذهب (سالم) إلى العاصمة بحثًا عن مساعدة فوافق (سالم) لكن أخاه رفض وقال:

«أنا من سيذهب.. القرية وأهلها يحتاجونك..»

فشد أخو (سالم) رحاله للعاصمة وعاد بعد أسبوع، عاد ومعه رجل غريب يلبس عباءة سوداء ويغطي رأسه بخرقة حمراء ولحيته طويلة ويده

مغطاة بالخواتم والحلي. طلب أخو (سالم) الاجتماع بأهل القرية وقال:

لقد اكتشفنا الفاعل وهذا الرجل الطيب سيخلصنا منه

فسأل الناس: ومن هو الفاعل؟

فرد الرجل الغريب بصوت هادئ وقال:

إنه (جسار)..

فسكت الجميع.. وبدؤوا يتهامسون فيما بينهم ثم قال (سالم):

ومن (جسار) هذا ولماذا يهاجم قريتنا؟

فحكى لهم الرجل قصة الشيطان (جسار) وكيف قام الساحر الذي طرده أهل القرية بتسليطه عليهم. بعد ما سمع الناس حكاية (جسار) دب الرعب في قلوبهم لكن أخا (سالم) طمأنهم وقال:

لا تخافوا فهذا الرجل سيخلصكم منه لكنه يحتاج منكم بعض المساعدة..

فقالوا: ليطلب ما يشاء لكن المهم أن ينقذ بناتنا.. !

فطلب منهم الرجل قطعة من لباس كل شخص في القرية وإحضارها للمسجد قبل صلاة المغرب فتفرق الناس لتلبية طلبه.

عندما خلا المكان من الناس ولم يبقَ إلا (سالم) وأخوه والرجل الغريب أخذ (سالم) أخاه الأكبر جانبًا وقال:

من هذا الرجل وأين وجدته؟!

فقال أخوه:

كنت أسأل إمام أحد المساجد أعرض عليه المشكلة التي كنا نواجهها فجاء هذا الرجل وأخبرني أن لديه حلًّا لمشكلتنا.

فقال (سالم) بصوت غاضب منخفض:

وكيف تثق بشخص لا تعرف عنه شيئًا؟!

فرد أخوه وقال: لقد أثبت لي أنه يعرف الحل.

فقال (سالم): وكيف عرفت ذلك؟!

قال أخوه: لقد ذكر لي أسماء الفتيات المختفيات كلهن وكذلك أعمارهن ووصف أشكالهن

فرد (سالم) بغضب وصوته قد بدأ بالارتفاع قليلًا وقال:

هذا شيء يثير الشك وليس الثقة!!

فقال أخوه: ماذا تقصد؟

فقاطع الرجل الغريب حوارهما وقال:

هل هناك مشكلة؟

فقال (سالم) بغضب: نعم!.. هناك مشكلة!

فرد الرجل: وما هي؟

فقال (سالم): كيف عرفت كل هذه المعلومات عن فتيات القرية؟

فرد الرجل بهدوء: لأني ساحر..

فصدم (سالم) وأخوه الأكبر وقالا: ساحر؟!

قال: نعم ساحر.. وسوف أخلصكم من (جسار) وسيده بمبلغ من المال وإذا كنتم لا تريدون ذلك فسوف أرحل.

وهم الرجل بالرحيل فأمسكه أخو (سالم) من يده وقال:

«اهدأ يا شيخ !»

فصرخ (سالم) في وجه أخيه وقال:

أي شيخ هذا؟! هذا ساحر كافر!

فقال الساحر: احفظ لسانك!

فصرخ (سالم) وقال:

لن نتعامل مع ساحر حتى لو اختفت بنات القرية كلهن!

فقال الرجل: كما تشاء..

وخرج الساحر من بيت (سالم)..

فقال أخوه الأكبر: ماذا فعلت يا (سالم)؟!!

فقال (سالم): فليذهب إلى الجحيم لن نكفر كي ننجو فالله هو الحافظ!

خرج أخو (سالم) وراء الرجل يستجديه ويطلب منه البقاء ويحاول أن يبرر لأخيه ما قاله لكن الرجل رفض ورحل. جاء المغرب وأحضر الناس ما طلب الرجل منهم لكنهم لم يجدوه فقال (سالم) للناس المجتمعين عند بابه:

«لنصلِّ المغرب ثم لنتحدث في الأمر في المسجد».

بعد الصلاة اعتلى (سالم) المنبر وشرح لأهل القرية الموقف وكانت ردود فعل الناس متفاوتة بين مؤيد ومعارض وصرخ رجل من بين الحشود الغاضبة وقال:

أنت لا تهتم لأن ابنتك ما زالت في أحضانك !

فقال (سالم): «والله لو استطعت لقدمتها فداء لبناتكن»

فقال بعض الناس بصوت واحد: «آمين»

خرج بعدها الناس من المسجد وبعضهم يتذمر من موقف (سالم) وتفرده برأيه. بقي (سالم) وأخوه في المسجد وهما يفكران في حل لهذه المشكلة ولم يخرجا حتى اقترب وقت صلاة العشاء، وقبل الأذان بقليل دخل عليهما أحد أهل القرية وهو يصرخ بفرح:

«عادت ابنتي يا (سالم) لقد عادت!»

و تكرر المشهد مع شخص آخر ثم آخر حتى اجتمع كل أهل القرية في المسجد وهم يهللون ويكبرون فرحين، فرح (سالم) كثيرًا وبين تهليل وتكبير الناس أذن أخو (سالم) لصلاة العشاء وصلى الناس جماعة وبعضهم بكى في الصلاة من شدة الفرح. بعد انقضاء الصلاة تفرق الناس، وذهب (سالم) وأخوه للمنزل وكان (سالم) متزوجًا لكن أخاه الأكبر كان أعزب وكانا يسكنان في المنزل نفسه مع والدتهما وزوجة (سالم) وأطفاله الأربعة.

دخل سالم وأخوه وسمعا بكاء أمهما وزوجة (سالم) فسألهما (سالم):

ما بكما؟!

فردت زوجته وهي تبكي بشدة:

ابنتك اختفت يا(سالم)!!

سقط (سالم) على الأرض من شدة الصدمة وهول الموقف، التقطه أخوه وأخذه للسرير وكان (سالم) يصرخ: أنا السبب في اختفائها!

ذهب أخو (سالم) إلى زوجة أخيه مسرعًا وقال لها:

«سأخرج للبحث عن مساعدة ابقي معه..»

ذهب أخو (سالم) إلى العاصمة ليلًا وبحث عن ذلك الرجل الذي طرده (سالم) من بيته حتى وجده وحكى له القصة التي حدثت بعد رحيله فقال الرجل وهو يبتسم بسخرية:

«لقد أخذ (جسار) ابنة أخيك وأعاد البقية لأن أباها دعا عليها ولعلها كانت ساعة استجابة فليتحمل ما أصابه».

نزل أخو (سالم) على ركبتيه وتوسل الرجل كي يساعده لكنه رفض وقال:

أخوك أهانني ولن أساعده حتى لو خر ساجدًا عند قدميّ..

فقال أخو (سالم): اطلب ما تريد لكن.. أعد ابنة أخي له. فصمت الرجل قليلًا ثم قال:

سأفعل.. لكن بشرط واحد فقط

فقال أخو (سالم): اطلب ما تشاء!

فقال الرجل: أن تكون خادمًا عندي إلى أن يموت أحدنا.

فوافق أخو (سالم) بلا تردد وقال:

أعد ابنة أخي لأهلها وسأكون خادمك إلى الأبد.

فابتسم الرجل وقال: لقد عادت الفتاة قبل أن تنهي حديثك.

شكر أخو (سالم) الرجل وطلب منه أن يودع أهله للمرة الأخيرة قبل أن يقضي بقية حياته خادمًا له، فوافق الرجل وأمهله يومًا واحدًا فقط. عاد أخو (سالم) مسرعًا لأهله ووجد ابنة أخيه بين أحضان أبيها فسعد بذلك وفرح وودعهم وقال لهم إنه وجد عملًا في العاصمة وسيغيب لفترة من الزمن. عانق (سالم) أخاه فبدأ أخوه بالبكاء بحرارة لأنه كان يعرف أنها آخر مرة سيرى فيها وجه (سالم) فكان عناقه له قويًا وعناقه لأمه أقوى. سأل (سالم) أخاه عندما رآه بهذه الحالة وقال: ماذا بك؟!

فقال أخو (سالم): لا شيء.. لكني سأشتاق لكم..

فقال له (سالم): كيف تقول لا شيء وأنت تودعنا بقوة وكأنك لن ترانا مرة أخرى. لا تذهب لهذا العمل إذا كنت لا تقوى على فراقنا.

فقال أخو (سالم) وقد مسح دموعه:

لا عليك يا أخي فأنا لم أعتد على فراقكم أكثر من أسبوع من قبل.

حمل أخو (سالم) أمتعته وسار نحو الباب في طريقه نحو العاصمة. فلحق به (سالم) وأمسك بكتفيه والدمع في عينه وقال:

«لا تغب طويلًا يا (عمار) فالمسجد يحتاجك..»

قصة الشيطان (جسار)

كما رواها الرجل الغريب

(جسار) هو الابن الأصغر للقرين المتمرد (مازع) وهو من أكبر الشياطين المتمردة وراح ضحيته الكثير من السحرة الذين حاولوا تحضيره. (مازع) خرج عن سيطرة صاحبه عندما حاول تحضيره لرؤيته ويمجرد تحرره قام (مازع) بقتل صاحبه وكل أسرته ومنذ ذلك الوقت وهو يتسلط على الناس ولم يستطع أحد إيقافه. انضم (مازع) لقبيلة «الكثبان» وتمكن من تولي قيادة العشيرة بعد وقت قصير بزواجه من ابنة زعيم القبيلة وأنجب من الأولاد سبعة أكبرهم قدرًا وأحبهم لقلبه كان (جسار) لأنه كان يشبه أمه التي رفعت من شأن (مازع) بين معشر الشياطين وبدوره كذلك رفع (جسار) اسم أبيه عاليًا بين أسياد الشياطين بقوته وشجاعته التي أظهرها في حروب القبيلة مع القبائل الأخرى. بقي (جسار) قرة عين أبيه (مازع) حتى ذلك اليوم الذي عشق فيه (جسار) فتاة من الإنس وكان هذا محرمًا في معشر الشياطين لكنه كان مسموحًا للأسياد ومع هذا كان الأسياد والذي يعتبر (جسار) وأهله من بينهم

يترفعون ويتجنبون عشق البشر أكثر من غيرهم لأنهم يرون في ذلك تدنيسًا لعرقهم وهبوطًا في مستواهم القبلي.

منع (مازع) ابنه (جسار) من زيارتها لكن (جسار) خالف أمر أبيه وعاد لزيارة تلك الفتاة لكن أمره انكشف وحوكم بالنفي مدى الحياة وسلبت منه حصانته ضد السحرة الصغار والمبتدئين كي يتحكموا به ويجعلوا منه خادمًا لأغراضهم ويقال إنه أصيب بضرب من الجنون بعد نفيه. بقي (جسار) خادمًا ذليلًا يتنقل من ساحر لآخر لقضاء حوائجهم ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئًا لمنعهم بسبب الربط الذي ربطه أحد كبار الشياطين عليه، وفي يوم قام شاب صغير لم يتجاوز العشرين من عمره وكان في بدايته بتعلم السحر وحضر (جسار) بهدف البحث عن الثراء بواسطة السحر. عندما ظهر له (جسار) قال له الساحر الصغير أريدك أن تحضر لي أموالًا كثيرة.

فقال (جسار): أنت لا تفهم الغرض مني

فقال الساحر الصغير: وما هو الغرض منك؟

فقال (جسار): أنا أسلط على الجسد وأذهب العقل وأسكن المنام فقط.

فسكت الساحر قليلًا ثم قال:

ولماذا لا تختار ما تريد أن تفعل؟

فحكى (جسار) للساحر قصته.

فقال له الساحر: وكيف تتحرر؟

قال (جسار): بموت الشيطان الذي ربطني

فقال الساحر: وكيف ذلك؟

قال (جسار): بأن تحضره مقيدًا وتحضر معه شيطانًا آخر وتأمره بقتله

فقال الساحر: وما فائدتي من ذلك؟

رد عليه (جسار) وقال:

أموال الدنيا وأكثر ستكون تحت تصرفك.. فقط حررني وسأحقق لك كل ما تريد.

فبحث الساحر عن كتاب لتحضير الشيطان الذي ربط (جسار) وعن كتاب لتحضير من يقتله.. لكنه لم يجد.. فقال لـ(جسار):

لم أجد ما تريد لذلك لن أستطيع..

فرد عليه (جسار) وقال: ستجدهما عند ساحر اسمه (نجد) يسكن (عدن) اذهب إليه واطلب مساعدته.

بحث الساحر عن (نجد) فلم يجده وسمع خلال بحثه وسؤاله عنه عن قصة موته وتحرر قرينه فبحث عن كتاب قرينه فوجده وعاد به ل(جسار) وحكى له ما حدث فقال له (جسار):

حضره واسأله عن مكان الكتب.

فقال الساحر: ولماذا لا تفعلها أنت بنفسك فأنت شيطان علوي؟

فرد عليه (جسار) بغضب:

لأني مقيد ولا أملك قوة لفعل ذلك !!

فخاف الساحر وقام بتحضير (دجن) وعندما حضر (دجن) هم بقتل الساحر لكن (جسار) صرخ عليه ومنعه وقال له:

توقف يا قرين (نجد).. حررني ولك ما شئت

فقال (دجن): وإيش راح أستفيد لما أساعدك يا مربوط؟

فقال له (جسار): أنت تعرف ماذا يمكن أن أفعله لك.

غاب (دجن) لفترة بسيطة ثم عاد ورمى كتاب تحضير الشيطان الذي قيد (جسار) في وجه الساحر الصغير وقال له:

يلا خلصنا حضره بسرعة.. و أول ما تحضره اربطه لا تورطنا لأن شكلك توك في الشغلة.

نفذ الساحر ما أمره به (دجن) وخرج الشيطان الذي قيد (جسار) وهو يصرخ بشدة وحدث ما كان يخشاه (دجن) فلم يلحق الساحر الصغير قراءة طلسم تقييد الشيطان الذي ربط (جسار) وفي لمح البصر قسم الشيطان الساحر إلى نصفين فباغته (دجن) من خلفه وقتله قبل أن ينتبه لوجوده فتحرر (جسار) من قيوده وبدأ يصرخ ويزأر منتشيًا لتحرره عندها قال له (دجن):

يلا يا سيد وين وعدك؟

فقال (جسار): إذا لم تبتعد عني فسأمزقك أيها القرين الحقير

فقال (دجن): أفا.. طلعت مش قد كلامك.

وقبل أن يرد (جسار) عليه هجم (دجن) على (جسار) لكن (جسار) كان أقوى منه بكثير فصرعه أرضًا في لمح البصر وأمسك بعنقه لكنه لم يقتله وقال له:

«سأعفو عنك فقط لأنك ساعدتني لذلك بمجرد أن أتركك اخرج بلا عودة وإلا فلن ترى النور أيها القرين»

خرج (جسار) من منزل الساحر وقتل كل ساحر استخدمه في السابق لقضاء حاجة له وقد قام بقتلهم جميعًا في يوم واحد حتى لا يحذروا بعضهم بعضًا لدرجة أن السحرة الآخرين أصابهم الذعر من أن يصيبهم المصير نفسه حتى وإن كانوا لم يتعاملوا مع (جسار) من قبل. قام (جسار) بعدها بالاختفاء ولم يسمع عنه أحد حتى استطاع ساحر متمكن من الحجاز تحضيره وتسخيره لخطف النساء واستمر (جسار) يخدم ذلك الساحر حتى مات الساحر لكن (جسار) لم يتوقف عن الخطف وأصبح معروفًا بهذه الصفة ولا يستطيع تحضيره إلا من بلغ من علم الشعوذة درجة كبيرة ويبدو أن الساحر الذي اعتديتم عليه كان ذا مقدرة عالية وقام بتسليط (جسار) عليكم.

(عمار) والصعود للهاوية

وصل (عمار) لمنزل الرجل الغريب الذي طلب منه العمل لديه مدى حياته والذي اتضح فيما بعد أنه ساحر كبير ومشهور بين السحرة وبدأ (عمار) فور وصوله في خدمته وتنظيم مواعيده مع زواره من كل البلدان. أمضى (عمار) مع الساحر سنوات طويلة جعلته يفقد إيمانه تدريجيًّا وينخرط في عالم السحر والشعوذة الخبيث وكان الساحر يلقن (عمار) خلال تلك الفترة بعض أسرار المهنة حتى أصبح (عمار) أحد السحرة المشهورين في العاصمة.

وخلال تلك الفترة التي أتقن فيها (عمار) معظم أسرار المهنة جاء رجل يبكي عند باب الساحر وطلب الدخول عليه فاستأذن له (عمار) من الساحر ودخل وبدأ يحكي للساحر قصته و(عمار) يقف بجانب الساحر ويسمع ما يدور بينهما. قال الرجل إنه تزوج منذ أشهر من فتاة تصغره في السن بفارق كبير ومنذ أن تزوجها بدأت الكوابيس تطارده وكان يأتيه شكل مخيف محاط بالدخان يهدده بأنه إذا اقترب منها فسوف يقتله وكان يأمره بتطليقها في كل كابوس.

رد عليه الساحر وقال: هل لديك ما يكفي من المال؟

فقال الرجل: أنا تاجر معروف وأملك ما يكفي من المال.

فطلب الساحر منه مبلغًا كبيرًا ودفعه الرجل دون تردد وهو يقبل يد الساحر ويقول له:

«أرجوك خلصني مما أنا فيه»

أمر الساحر (عمار) بتوصيل الرجل وقال للتاجر:

«لا تخف لن ترى شيئًا بعد اليوم»

عاد (عمار) بعد أن قام بتوصيل الرجل للباب فوجد الساحر يتكلم ويتمتم فاختبأ وراء الباب ليسمع كلامه لأن (عمار) كان يستخدم هذه الطريقة لحفظ الطلاسم التي لم يكن الساحر يخبره بها كي لا يتفوق عليه (عمار) ويبقى أضعف منه وبحاجته دائمًا. سمع عمار بعض الطلاسم التي لم يسمعها من قبل وبعد ما انتهى الساحر منها ظهر دخان كثيف في الغرفة وبدأ الساحر بالحديث مع ذلك الدخان قائلًا:

«توقف يا (جسار) عن مطاردة التاجر وتوجه الآن لأخت المسؤول الكبير»

فاختفى الدخان بسرعة وسكت الساحر وأغمض عينيه فدخل عليه (عمار) بعد ما انتظر قليلًا وقال:

هل تأمرني بشيء آخر يا سيدي؟!

فقال له الساحر:

لا.. اتركني وحدي الآن يا (عمار).

خرج (عمار) وهو يفكر في تحذير أخت المسؤول الكبير لأنه عرف الآن أن الساحر هو من أرسل (جسار) للقرية وهو من أمر (جسار) بخطف ابنة أخيه، فعقد (عمار) العزم على تحذير أخت المسؤول الكبير لكن الأمر لم يكن سهلًا ولم يستطع (عمار) الوصول للمسؤول الكبير أو أخته لتحذيرهما. مضت الأيام ونسي (عمار) القصة حتى دخل شخص ومعه مجموعة من الأشخاص وسألوا عن الساحر بالاسم فرد عليهم (عمار) وأخبرهم بأنه مشغول فدفعوه ودخلوا على الساحر بالقوة وقالوا له:

أخت المسؤول الكبير تعاني منذ أسابيع من شيطان يعبث بها كل ليلة وقد جربنا كل شيء حتى أخبرنا أحدهم أنك تجيد التعامل مع هذه الأشياء فهل هذا صحيح؟

فقال الساحر: نعم لكني أُريد مقابلة المسؤول شخصيًّا.

فرد أحدهم وقال: ولماذا تريد مقابلته؟!

فقال الساحر: الأمر يحتاج بعض الفحص والاستفسار وأنتم لن تنفعوا لذلك.

فتشاور الرجال و(عمار) خلفهم يشاهد ويسمع ما يدور بينهم ثم قال أحد الرجال بعد ما تشاور مع البقية:

يجب أن نسأل المسؤول الكبير نفسه فالقرار ليس بأيدينا.

فرد عليهم الساحر وقال: كما تشاؤون..

خرج الرجال وطلب الساحر من (عمار) الخروج وإغلاق الباب خلفه. أغلق (عمار) الباب لكنه لم يخرج واختبأ في الغرفة فسمع الساحر يستخدم الطلاسم نفسها التي أتت بالدخان، وفعلًا ظهر الدخان وقال له الساحر:

«اجعل ليلتها جحيمًا يا(جسار) أُريد المسؤول الكبير أن يأتي راكعًا بنفسه تحت قدمي ليطلب مني المساعدة»

فاختفى الدخان بسرعة ولم يستطع (عمار) الخروج خوفًا من أن ينكشف لذلك بات (عمار) في الغرفة حتى الصباح إلى أن خرج الساحر فخرج بعده مسرعًا لبيت المسؤول الكبير ليحذره لكن الحراس منعوه، فجلس عند باب بيت الساحر يفكر. بعد ساعة من جلوس (عمار) عند باب بيت الساحر أقبل عليه الرجال أنفسهم الذين جاؤوا للساحر بالأمس وعلى وجوههم علامات الخوف والقلق وقالوا ل(عمار):

أين سيدك؟!

فقال لهم (عمار): خرج

فصرخ رجل منهم وقال: ومتى سيعود!

فرد (عمار) وقال: لا أعرف لكن أنا يمكنني المساعدة

فنظر إليه الرجل بازدراء وقال:

ومن أنت؟

فقال: أنا (عمار) مساعده

فقال له الرجل:

ليس باليد حيلة.. تعال معنا

ذهب (عمار) لقصر المسؤول الكبير واستقبله المسؤول استقبالًا جيدًا وطلب منه الكشف على أخته.. ففعل.. ثم قال له المسؤول:

هل تستطيع أن تساعدها؟

فقال له (عمار): لا.. لا أستطيع

فغضب المسؤول غضبًا شديدًا وصرخ في (عمار) واتهمه بالدجل والكذب لكن (عمار) قال له:

لكني أعرف من يستطيع

فهدأ المسؤول وقال:

أرجوك دلني عليه.. !

فرفع (عمار) سبابته للسماء وقال:

«الله لا إله إلا هو الحي القيوم..» الآية

فبكى المسؤول واقترب منه (عمار) وقال له:

لن يخيب الله ظنك إذا دعوته.. ولا ترتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبته أنا باللجوء لغيره..

خرج (عمار) من القصر وخلفه صوت المسؤول يبكي ويدعو. توجه

(عمار) للبيت ولم يكن الساحر قد عاد وجلس على كرسي الساحر وبدأ بقراءة طلاسم استدعاء (جسار) وعندما حضر قال له (عمار):

أريدك أن تقلب حياة الساحر إلى جحيم هذه الليلة وبعدها أنت حر يا(جسار) لكن قبل رحيلك أحضر لي رأسه

بعد رحيل (جسار) توجه (عمار) لفراشه ونام دون أن ينتظر قدوم الساحر كما اعتاد أن يفعل. استيقظ (عمار) في الصباح التالي ليجد رأس الساحر بجانبه ينظر إليه بعيون مفتوحة يتطاير حولها الذباب وفمه مفتوح وقد تهشمت أسنانه ورموشه جفت عليها بعض قطرات الدماء. نهض (عمار) من فراشه بكل هدوء وأمسك رأس الساحر ورماه بعيدًا عن مضجعه.

ومنذ ذلك اليوم قبل ثلاثة عقود لا يعرف أحد لماذا لم يرجع (عمار) لأهله في القرية واختار عوضًا عن ذلك أن ينتقل لسفح جبل قريب منها ونقل معه كل كتب الساحر وبقي هناك إلى اليوم.

آخر أيام (سالم) كما أخبر حارس المقبرة

أكمل حارس المقبرة حديثه بالحديث عن ما حدث لـ(سالم) أخي (عمار) في تلك الفترة وقال:

بعد رحيل (عمار) للعاصمة بقي (سالم) في القرية مع أسرته وعادت حياته لطبيعتها واستمرت حياتهم طبيعية حتى اشتاق (سالم) لرؤية أخيه (عمار) والذي قد مضى على رحيله أكثر من عامين فشاور أهله ثم قرر الذهاب إلى العاصمة لزيارته لكنه لم يكن يعرف أين يجده لذلك قرر أن يسأل في المساجد لعله عمل كمؤذن أو إمام لأن صوت (عمار) كان جميلًا جدًّا. عندما وصل (سالم) للعاصمة بدأ بالبحث عن أخيه في المساجد لكنه لم يجده وظل في العاصمة يبحث عنه لأكثر من أسبوع حتى يئس وقرر العودة للقرية لكن شاء الله أن يرى (سالم) أخاه (عمار) مصادفة في السوق وهو يشتري بعض الحاجيات ففرح (سالم) جدًّا وتوجه إليه مسرعًا ليعانقه لكن (عمار) تظاهر بأنه لا يعرفه خوفًا من أن يراه الساحر لأن الساحر هدده بأنه إذا رأى (سالم)

مرة أخرى فسيقتله فتهرب (عمار) من أخيه وأنكر معرفته به لكن (سالم) أصر على الحديث معه إلى أن دفعه (عمار) وهرب. لحق (سالم) بأخيه بعد ما دفعه في السوق وحرص (سالم) أن يلحق بـ(عمار) دون أن يشعر حتى دخل (عمار) بيت الساحر مما دفع (سالم) لسؤال أحد المارة بقوله:

بيت من هذا.. ؟

فرد عليه وقال:

شيخ يقرأ على الناس.

فابتسم (سالم) وقال: الحمد لله..

لكن ذلك لم يجاوب على السؤال الذي كان يدور في رأس (سالم) وهو لماذا أنكره (عمار) ولم يرغب في الحديث معه؟

قرر (سالم) أن يبقى ليلة أخرى في العاصمة حتى يتحدث مع أخيه ويعرف الجواب لسؤاله، وفي الليل سمع (سالم) طرقًا على باب غرفته التي استأجرها للمبيت تلك الليلة ودار بينه وبين شخص غريب حوار على الباب لمدة لم تتجاوز بضع دقائق ثم عاد (سالم) بعدها لغرفته ورحل من كان يجاذبه أطراف الحديث (نقل هذا الكلام صاحب السكن الذي استأجره (سالم) للجهات الأمنية التي جاءت في الصباح للتحقيق ولنقل (سالم) للمستشفى) فقد جن جنون (سالم) بعد رحيل زائره بدقائق وفقد عقله تلك الليلة وبدأ بالصراخ طيلة الليل حتى

اضطر صاحب السكن إلى إبلاغ الأمن. بقي (سالم) في المستشفى عدة أشهر وتم إبلاغ أهله الذين كانوا يزورونه بانتظام حتى آخر يوم قبل وفاته منذ عشر سنوات.

انتهى كلام حارس المقبرة..

خطوات دامية للوراء

بدأت بالسير تجاه القرية عائدًا من المقبرة بعد سماعي للقصة التي رواها لي الحارس وبدأت أظن أني ظلمت (عمار) وأن (دجن) خدعني كي أسهل له عملية قتله لأنه لم يكن ليستطيع ذلك دون غصن الزيتون الذي شارك (عمار) فراشه البارحة، لكن لم أعرف سبب قتل (دجن) لـ(عمار).

وصلت للقرية ولم أذهب لبيت (سالم) وأكملت طريقي لبيت (عمار) الذي لم ينتشر خبر موته بعد لأنه يعيش في عزلة على سفح الجبل بعيدًا عن الناس وقبل وصولي لمنزل (عمار) بمسافة بسيطة ظهر لي (دجن) وبدا مستاءً وقال لي:

ليه تأخرت؟!

فلم أرد عليه وأكملت طريقي. وظل طيلة الطريق وأنا أمشي باتجاه بيت (عمار) يكلمني بعصبية ويقول:

ليه بترجع؟.. خلاص خلنا نمشي!

لم أرد عليه حتى وصلت لباب منزل (عمار) فسكت (دجن) ثم

حولت نظري باتجاهه وقلت:

أنا لا أعرف لماذا قتلته.. لكني أعرف أنه لا يمكن أن يكون الشخص الذي أرسل الشيطان لأمي وقد نجحت في خداعي لمساعدتك ولو أردت أن ترد لي هذه المساعدة يومًا ما فأخبرني.. أما الآن فإكرام الميت دفنه.

دخلت المنزل وظل (دجن) بالخارج صامتًا. نظفت المنزل من الدماء على قدر استطاعتي ودفنت (عمار) تحت شجرة كان يحب أن يستظل بها دائمًا ثم دعوت له وعدت باتجاه منزله. توجهت ل(دجن) وقلت له بنبرة حادة:

أعدني لموطني..

فقال: ما راح أرجعك !

فصرخت فيه وقلت: أعدني يا شيطان !!

و لأول مرة أسمع (دجن) يقول:

«حاضر سيدي..»

و في لمح البصر كنت أمام منزلي. دخلت المنزل وطمأنت أهلي وذهبت لغرفتي ونمت لفترة طويلة ذلك اليوم. مضت الأيام وقل ظهور (دجن) أمامي وتناقص هذا الظهور حتى بدأت أنسى شيئًا اسمه (دجن). بعد مضي بضعة أشهر ظهر لي (دجن) قبل صلاة المغرب بقليل وقال:

كنت أبغى أتركك لهم لكن ما قدرت..

فقلت له: لا أفهم شيئًا من كلامك.. ماذا تقصد؟

فقال: قبيلة (يعرم) طالبين الثأر من قرينك اللي قتله وهم جايين الليلة عشان يقتلون قرينك وإذا مات قرينك بتموت معه.

فقلت له: ولماذا تهتم أنت؟

فابتسم وقال: تعودت عليك يا خي.

سكت قليلًا وفكرت في هذه القبيلة التي قرأت عنها في كتب (عمار) فهم كانوا يلقبون بقبيلة «الأباطحة» وهم من الشياطين العلوية والقبليّة تسري في عروقهم وحياتهم كلها حروب مع قبائل الإنس والجن ولا مجال للتفاهم معهم و(يعرم) لم يكن فردًا عاديًّا من أفراد تلك القبيلة بل كان من أبناء سادتها ولن يتركوا دمه دون ثأر. سألت (دجن) وقلت له:

وما الحل برأيك؟

قال: نشوف لنا قبيلة معادية لهم ونطلب حمايتهم

فقلت له: هل جننت؟ الحامي هو الله.

فقال: يا خي لا تقعد تتشنج علي وتهايط ترا ما عندك إلا لحد صلاة المغرب وبعدها أنت وقرينك بتفطسون !!

استجبت لكلام (دجن) بسهولة خاصة وأنه قال إنهم لن يكتفوا بي بل سيقتلون أهلي جميعًا وقد يمتد أذاهم لأقاربي ولم أكن أعلم هل كان

ذلك صدقًا أم حيلة أخرى من (دجن) كي أستجيب له لكني لم أكن مستعدًّا لاكتشاف ذلك والمخاطرة بحياة عائلتي لذلك قلت ل(دجن):

و ما العمل الآن؟

قال: نرجع لبيت (عمار) لأن الشياطين ما راح تفكر تقرب من بيته.

وفي غمضة عين كنا هناك ودخلت للمنزل لكن (دجن) بقي بالخارج فقلت له:

لماذا لا تدخل؟ الرجل الذي كان يمنعك مات؟

سكت (دجن) ولم يرد علي واكتفى بالنظر للسماء وبقي بالخارج. كان القمر تلك الليلة مكتملًا والجو جميلًا فخرجت أستمتع بالطبيعة الخلابة في ذلك المكان. رأيت (دجن) جالسًا وهو ما زال يحدق في السماء. لم أستطع لومه فالسماء تلك الليلة كانت صافية وخالية من الغيوم والقمر بالرغم من اكتمال نوره إلا أن النجوم كانت حوله واضحة. جلست بجانب (دجن) الذي كان بهيئته البشرية، سكتنا قليلًا ثم تكلم (دجن) وقال:

(عمار) ما كان طيب زي ما تظن.. كل السحرة يظهرون لك الطيب في الأول لكن لهم يوم ويستغلونك.

فقلت له: وما أدراك؟

قال: صدقني أنا أخبر منك.

تغير مجرى النقاش عندما سألته وقلت:

وما العمل الآن.. لقد قطعنا مسافة طويلة ويجب أن يكون لنا خطوة تالية؟

قال (دجن): قبيلة «الأباطحة» قبيلة قوية ولا يوازيها في القوة إلا قبيلة واحدة وهم قبيلة «الكثبان».

فقلت له: أليست هذه قبيلة (جسار)؟

قال: بلى صحيح؟

فقلت له: هل فقدت عقلك؟

قال: ليه؟.. أنا وش قلت؟

قلت: كيف لقبيلة مثلهم أن تقف في وجه «الأباطحة» لأجل شخص مثلي؟

قال: خل الموضوع علي ولا تخاف

فقلت له: اشرح لي ماذا ستفعل.

فقال: ليه؟ مو واثق فيني؟

فقلت له: طبعًا لا

فضحك وقام من مكانه ثم اختفى..

مكثت فترة في الخارج أتمعن في لمعان النجوم فعلى الرغم من أني أمضيت في هذا المكان ثلاث سنوات من عمري إلا أنني لم أستمتع

بالمناظر الخلابة التي كانت حولي إلا من خلال نافذة زجاجية. دخلت لمنزل (عمار) بعد ما غلبني النعاس لأنام، وضعت رأسي على فراشه الذي كانت عليه بعض قطرات من الدم لم أنتبه لتنظيفها فأدرت رأسي بالاتجاه الآخر ورأيت غصن الزيتون وقد جف وانكمش لحجم صغير ولم يبقَ منه إلا فتات يسهل نفخه.. فنفخته.

هجر النوم عيني بعد ما رأيت غصن الزيتون الجاف يطير أمامي فجلست على طرف السرير أقاوم شعور الحزن على (عمار) وأقول في نفسي:

«إنهم مجرد سحرة لا يستحقون منا الرأفة أو الحزن»

وأنا في معركة إقناع نفسي بذلك دمعت عيني وخنقتني العبرات. نهضت من السرير بعد ما أيقنت أن النوم لن يزورني تلك الليلة وبدأت أتجول في منزل (عمار) الذي كان منزلي لثلاث سنوات وبدأت أتذكر أيامي معه وأتذكر مبتسماً تلك الكتب والطعام المقرف الذي كان يحضره لي كنت أتجول في أرجاء المنزل أسترجع ذكريات كانت في وقتها مؤلمة. دخلت المكتبة ولأول مرة كان لي الخيار في القراءة من عدمه، أحسست بشعور مريح لأني لست مجبرًا على قراءة شيء منها بعد اليوم. كنت أتفرج على الرفوف وأنا أبتسم لكن ابتسامتي اختفت عندما وقعت عيني على كتاب لم أرَه في المكتبة من قبل. قلت في نفسي:

«لعله كتاب كالكتب الأخرى ولم أنتبه له من قبل»

لكن كنت متيقنًا أن كل كتاب في المكتبة تصفحته ولو مرة بالرغم من أني لم أقرأ إلا ثلثيها من الغلاف للغلاف وهذا الكتاب لم يكن بينها عندما كنت موجودًا هنا. بدأ الفضول ينهش بي ولم أعرف لماذا، بدأت أقاوم الرغبة في فتحه واستقر بي الحال لقرار مسكه فقط. ذهبت للكتاب وأمسكت به وجلست على الطاولة ووضعته عليها وأنا أقول في نفسي:

«ماذا تفعل؟ ألم ننتهِ من قراءة ما نجهل؟».

ظل الكتاب أمامي نصف ساعة تقريبًا وأنا أحدق فيه، كان لون الكتاب أحمر بلا عنوان وكبير الحجم على غير عادة الكتب الموجودة في المكتبة مما زاد فضولي أكثر وأكثر لكني في النهاية وبعد تفكير أدركت أني لو فتحت الكتاب دون حاجة مع معرفتي بأنه قد يضرني فسوف يلغي ذلك أي حجة تحججت بها في السابق لدخولي في هذا العالم وسأكون قد خسرت نفسي وللأبد. عدت للفراش واستعذت بالله ونمت تلك الليلة.

لم يدم نومي طويلًا فقد استيقظت على صوت (دجن) وهو يناديني من الخارج ويقول:

قم بسك نوم!

فخرجت وأنا مرهق فقام (دجن) بمسك أكتافي بيديه وهزي بقوة وهو يقول:

الجماعة وافقوا!

فقلت: أي جماعة؟

فقال: «الكثبان» ما غيرهم!

فقلت: وافقوا على ماذا بالضبط؟

قال: أن يحموني أنا ويّاك من «الأباطحة»

فطار النوم الذي كان بعضه ما زال عالقًا في عيني وقلت له:

كيف أقنعتهم؟!

فقال: ما لك دخل المهم أن الحراس معنا الحين.

فقلت: أي حراس؟

فصوب (دجن) نظره إلى الأفق وقال:

خلوه يشوفكم يا شباب!

فتكونت أمامي سحابة كبيرة من الدخان وبعد ما انقشعت ظهر منها ثلاثة أشخاص أحدهم امرأة لم يكونوا كالبشر تمامًا لكنهم كانوا أضخم بقليل وملامحهم أكثر حدة.

قلت لـ(دجن): مَن هؤلاء؟

فقال: حراسنا من القبيلة يعني زي الأخويا كذا.

فقلت: وما فائدتهم؟

فضحك وقال:

ما تعرف فائدة الأخويا؟.. يعني حراس شخصيين لك

فقلت: وما هو المقابل؟

فنطق أحدهم بغضب وكان أضخمهم وكلم (دجن) وقال:

ألا يعرف صاحبك بالاتفاق؟!

فظهرت علامات الارتباك على (دجن) وقال:

أكيد يعرف بس هو لسه صاحي من النوم ومو مركز ممكن تعطونا فرصة نتكلم شوي؟

فقال الرجل الضخم:

لك ذلك..

رحل الحراس من أمامنا فأدرت نظري ل(دجن) وقلت:

ما القصة أيها الشيطان؟

فقال لي (دجن):

شوف أنا راح أحكي لك بالضبط اللي صار لكن حط في بالك أن أنا ما كان عندي حل ثاني عشان أساعدك

فقلت له: تكلم ولا تراوغ!

فقال: طيب اسمع..

الاتفاق الذي عقده (دجن)
مع قبيلة «الكثبان»

أجلسني (دجن) ثم قال لي:

شوف.. ما عمرك تساءلت في يوم ليه (عمار) كان بهذه القوة وليه أنا ما كنت أقدر أدخل بيته وليه لما قتلناه..

فقاطعته وقلت: أنت قتلته وليس أنا.. !!

فقال: مو مشكلة مو مشكلة خلني أكمل..

فقلت له: أكمل..

فقال: ولما مات (عمار) حاولت أنا أقنعك إننا نمشي بسرعة؟

فقلت: نعم وكنت مستغربًا من عجلتك.

فقال: لأن (عمار) مو ساحر عادي فهو ساحر تحت الحماية.

فقلت: تحت الحماية؟

قال: إي تحت الحماية.. يعني محمي من العالم السفلي عشان كذا الشياطين كانت تخاف منه وتخاف تتعرض له.

فقلت: وكيف حصل على تلك الحماية؟

فقال: اسمع الحكاية كلها ولا تقاطع..

فقلت: تفضل..

أخبرني (دجن) أنه بعد عودة (عمار) من العاصمة واختياره الإقامة في هذا الجبل بدل العودة لأهله بدأ يقرأ في كتب الساحر الكبير والتي كان معظمها بعيدًا عن متناول يد (عمار) خلال فترة خدمته لذلك الساحر وخلال قراءاته على مدى شهور وقعت عينه على كتاب نادر جدًّا وسبب ندرته هو احتواؤه على طرق تحضير أسياد الشياطين وطلاسم ربطهم وتسخيرهم وهذه العملية صعبة جدًّا وتتطلب إمكانيات عالية لكن (عمار) جرب ونجح، قام (عمار) بقراءة إحدى صفحات التحضير الموجودة في ذلك الكتاب واختياره للصفحة كان في ما يبدو عشوائيًّا لأن الصفحة تخص تحضير (شند) وهو زعيم قبيلة من قبائل الشياطين ويتجنب السحرة عمومًا التواصل معه فما بالك بتحضيره وتسخيره؟

كان (شند) زعيمًا لقبيلة «الصوارم» وهو الأول من نسله وقد أسس قبيلته منذ مئات السنين ولم يخلفه أحد منذ توليه الزعامة لأنه من الشياطين المعمرة ولم يترك زعامة القبيلة منذ تأسيسها بالرغم من عدد أبنائه وبناته الكبير جدًّا. قرأ (عمار) الطلسم الذي كان أمامه وفي لحظات حضر عنده زعيم قبيلة «الصوارم» (شند) مقيدًا ومربوطًا تحت أقدام (عمار) وظل يصرخ ويتوعد (عمار) بالقتل والتنكيل فخاف

(عمار) من المنظر وبدأ يدرك أنه ارتكب خطأ جسيمًا بالعبث في تلك الطلاسم المتقدمة. لم يعرف (عمار) كيف يحرر هذا الشيطان ولو حرره فهل سيغفر له تلك الإهانة؟

استمر (عمار) بالقراءة في ذلك الكتاب على أمل الوصول لحل يخلصه من ذلك الشيطان الذي يصرخ أمامه ويهز أرجاء منزله بذلك الصراخ والعويل. وقعت عين (عمار) على سطر في إحدى صفحات الكتاب وكان السطر يقول:

«من طرق باب (جند) وقدم لها رأسٍ (شند) سيبقى لنا سيفًا وسنبقى له (غمدًا)»

لم يفهم (عمار) شيئًا من هذا الكلام لكنه المكان الوحيد في الكتاب الذي ذكر فيه اسم (شند) مرة أخرى لذلك قرر قراءة الطلسم الذي تبع ذلك السطر. بعد قراءة الطلسم مباشرة ظهر أمام (عمار) شيطان ضخم تصاحبه امرأة جميلة وبمجرد رؤية (شند) لهما ازداد صراخه ووعيده ل(عمار) وقال له:

«سنطاردك حتى ننتزع روحك من جسدك أيها المشعوذ !!»

وقبل أن يكمل (شند) كلامه أخرج الرجل الضخم سيفًا فصل به رأس (شند) عن مكانه لتسقط جثته على الأرض بلا حراك. أعاد الرجل الضخم سيفه لغمده ثم أشار بيده فظهر مجموعة من الرجال وقاموا بحمل جسد (شند) وخرجوا به وبقي رأسه على الأرض و(عمار) يقف

متسمرًا بفم مفتوح بين الرأس وفاصله. اقترب الرجل الضخم منه وقال له:

«من الآن وحتى أبدك ستكون لنا السيف وسنكون لك الغمد»

مد الرجل الضخم يده ووضعها خلف ظهر تلك المرأة التي كانت معه ودفعها باتجاه (عمار) وقال له:

«هي لك ومهرها قد وصل»

اكتشف (عمار) بعد زواجه من هذه المرأة أنها كانت (جند) ابنة (مازع) زعيم قبيلة «الكثبان» الشيطان الذي قتل (شند) في منزله ومهرها كان رأس زعيم قبيلة «الصوارم» لأن الصراع والتناحر بين القبيلتين على السيادة كان قديمًا ودمويًّا ولم تستطع إحداهما القضاء على الأخرى حتى تدخل (عمار) جهلًا منه في الصورة وقام بتحضير زعيم قبيلة «الصوارم».

فلم أتمالك نفسي وقاطعت (دجن) وصرخت في وجهه وقلت:

هل أنت أحمق؟!!.. نحن نهرب من ثأر قبيلة (يعرم) لتسقطنا في ثأر مع قبيلة «الكثبان» بسبب (عمار)؟

فضحك (دجن) بقوة وقال:

«يا حبيبي الشياطين ما تأخذ ثأر للبشر فلا تخاف»

فقلت له: ما الحكاية إذًا؟

قال: فشل «الكثبان» في حماية (عمار) مني كان بسبب غصن الزيتون

اللي أنت حطيته عند رأسه فهذا الغصن أعمى حراسه وعطاني الفرصة عشان أقتله عشان كذا هم ما يعرفون من قتله.. وعلى فكرة مسؤوليتهم تنتهي عند الحماية بس ولا يتبعونها لا بثأر ولا دم.

فقلت له: كيف جاؤوا معك إذًا؟

وهنا سكت (دجن) فقلت بنبرة غاضبة: تكلم!!

فقال: عمار بزواجه من (جند) صار مدون القبيلة وكل مدون له وريث وهذا الوريث يرث مسؤوليات المدون اللي قبله والحماية اللي كان ينعم فيها.

فقلت: وما شأني بذلك؟

فقال: وش رايك بعد؟.. قلت لهم إنك وريث (عمار).

فقلت له: وكيف صدقوك بهذه البساطة؟!

فقال: بسيطة.. شهدت الحراس بأنك جلست عنده ثلاث سنين وهي المدة اللازمة لتأهيل الوريث.

فقلت له: لقد أمضيتها بحثًا عن طريقة لإيقافك.

فقال: لا تصير غبي وتطيح من عيني.. (عمار) يا حبيبي كان يقدر يوقفني وينقذك من اللحظة الأولى اللي شافني فيها وأنا معك عند بابه لكنه اختارك عشان تكون وريثه وأجبرك تقرأ الكتب اللي في مكتبته بحيلة إنك لازم تدور اسمي وإلا بتموت ولما تأكد أنك مستعد وتشربت

الحرفة رمى الكتاب اللي فيه اسمي قدامك بدون ما تنتبه وأوهمك بأنك لقيته بالصدفة. وما أستغرب إذا ما يكون هو اللي مقترح عليك الكتاب عشان تقراه هذاك اليوم.

فسكت من الصدمة.. وخلال سكوتي قال (دجن):

ما قلت لك إن (عمار) إنسان خبيث؟ وعلى فكرة نسيت أقول لك شي ثاني بعد..

فقلت: نسيت ماذا؟ ألم تنتهِ المصائب التي في جعبتك؟

فقال وهو يبتسم بخبث واضعًا يده على كتفي:

المصيبة الجاية أجمل.. نسيت أقول لك إن الوريث يرث الزوجة بعد فجهز نفسك الليلة يا عريس ولا تفشلنا.

ضحك (دجن) بعد هذا الكلام ثم اختفى..

بقيت في المنزل أضرب كفًّا بكف أفكر في كلام (دجن) والكارثة التي حلت على رأسي وكيف تلاعب (عمار) بي طوال تلك السنين. بعد أكثر من ساعة غابت الشمس تمامًا وعاد (دجن) وقال وهو يبتسم:

جهزت حالك حق الليلة؟

فنظرت له وقلت: لماذا فعلت بي ذلك؟

فقال: وأنا وش سويت لك !.. إيش كنت تبيني أسوي لك يعني قبيلة (يعرم) جاها خبر إنك هنا ومخططين يقتلون قرينك وأنت ما تقدر عليهم لو تتمغط من هنا لبكرة !

فقلت له: لو كنت أعرف ما ستفعله لكنت اخترت الموت.

فقال لي: بلا هياط ما كنت بتختار الموت ثم إني أنا معاك في الموضوع وجماعة (يعرم) ضموني معك في الثأر يعني ما في مهرب وأنا كنت أحتاج حماية مثلك وأنا بصراحة مو بايع نفسي!

فقلت له: وما دخلك أنت كي يحميك «الكثبان»؟

فقال: «الكثبان» يحمون المدون وممتلكاته فقلت لهم إني عبد عندك.

فابتسمت وقلت: لكني كنت أظن أنك تريدني عبدًا عندك؟

فقال: لا خلاص الأمور اختلفت الحين.. وشف لما تكون (جند) معاك لا تطيح الميانة معاي عشان ما ننكشف.

فقلت له: لا تقلق سوف أعاملك كما تستحق.

نهضت وسألت (دجن): كيف سأتزوج من شيطانة؟

فقال: لا تخاف ما في اختلاف كثير بين حريمنا وحريمكم بالعكس يمكن حريمنا أهون..

فضحكت ولم أكن أريد أن أضحك لكن (دجن) الخبيث كلامه كان ساحرًا. قلت له:

ولكن أنا لم أتزوج من قبل ولا أعرف نساء البشر كي تقارن لي بهن

فقال: لا تخاف يا بني آدم هي أصلًا ما راح تجيك إلا متشكلة على هيئة بشر فما راح تحس بفرق.

فقلت له: هذا ليس أكبر همي صدقني..

ليلة زفافي على (جند)

جاء الليل ولا أعرف هل كان شعوري بالخوف طبيعيًا أم غير مبرر وهل هو خوف كل رجل من ليلة زفافه أم خوف من الشيطانة التي ستشاركني الفراش هذه الليلة؟ في منتصف تفكيري هذا قاطعني صوت قادم من الخارج وقال:

«اخرج أيها المدون!»

فخرجت ووجدت ثلاثة من الحراس ومعهم (دجن) ويرافقهم شيطان ضخم يمسك في يده مخطوطة وعلى وجه (دجن) ارتسمت تلك الضحكة الصفراء الخبيثة التي رأيتها على وجهه عندما قابلته أول مرة في المقبرة. تقدم الرجل الضخم الذي كان يمسك بالمخطوطة ويكبرني حجمًا بثلاث مرات وقال لي:

«نحن عشيرة «الكثبان» نقدم لك الأميرة (جند) رفيقة تلازمك حتى مماتك»

سكت.. و نظرت بينهم فلم أجد إلا الذكور ولم أرَ تلك الأميرة التي كان يتحدث عنها.. ثم أكمل الرجل الضخم كلامه بقول:

«ستكون تحت حماية العشيرة كما أمر سيدها (مازع) وستحاسب مثلنا على أي تقصير أو خيانة تجاه القبيلة و..»

فقاطعه صوت امرأة ظهرت من خلفه فجأة ووقفت أمامي وقالت:

«كفى يا (جسار) سترعب الفتى..»

فرد الرجل الضخم الذي اتضح أنه (جسار) ابن (مازع) الذي كان يخطف فتيات قرية (سالم) و(عمار) وقال:

لكن يا(جند) هذه أوامر أبينا ويجب أن نلقيها على مسمع المدون.

فابتسمت ووضعت أناملها خلف أذني وقالت:

أنا سأخبره بالبقية الليلة..

أشار (جسار) بيده للحراس الذين كانوا معه بالانصراف ثم لحق بهم بعدها بثوانٍ و(جند) تحدق بوجهي الذي بدا عليه الارتباك. أدركت وقتها أنها لم تكن تريد أحدًا بالجوار. قرأت ذلك في عينيها الواسعتين. وخلال عبثها بأناملها التي وضعتها خلف رأسي قال (دجن):

«هل تأمرني يا سيدي بالانصراف؟»

فلطمته (جند) على وجهه لطمة قوية وقالت له بنبرة حادة:

«اذهب من هنا أيها الأمرد!!»

نظر (دجن) بغضب نحو (جند) وخشيت أن يقوم بشيء أحمق فقلت له:

يمكنك الانصراف الآن !

رحل (دجن) وعلى وجهه ارتسمت علامات الغضب ولم ينزل عينه

من على (جند) التي عادت تداعب شعري وهي تقول:

«هل سنبقى في الخارج كثيرًا؟»

دخلنا أنا و(جند) إلى المنزل وكانت تسير في أرجائه وكأنها تألفه وتعرف كل زاوية فيه. أمسكت (جند) بأحد الكتب على الطاولة في غرفة المعيشة وفتحته وبدأت تتصفح فيه وقالت وهي تنظر في الكتاب:

أنت صغير على أن تكون مدونًا..

فقلت لها وأنا أبتسم بتوتر: ربما لأني محظوظ..

أغلقت (جند) الكتاب بقوة وتجهم وجهها ونظرت باتجاهي وقالت:

ماذا تقصد بمحظوظ؟!

فقلت بخليط من الرعب والتوتر تغطيه ابتسامه:

«لا شيء.. لا شيء..»

ابتسمت.. فبلعت ريقي من الارتياح المؤقت ولم أتفوه بكلمة بل حدقت بها بينما كانت تقترب مني بخطوات بطيئة حتى وصلت عندي وقالت:

هل أنت خائف مني؟

فقلت لها:.. لا..

فقالت: هل أنت متزوج في عالمك؟

فقلت لها:.. لا..

فقالت: لماذا؟

فقلت لها: ما زلت صغيرًا على الزواج.. لا أعرف

فقالت: وما هو العمر المناسب للزواج عندكم؟

سكت ولم أجب على سؤالها..

توجهت (جند) لغرفة نوم (عمار) وجلست على فراش زوجها السابق وأشارت بأناملها لي للجلوس بجانبها. جلست في الطرف الآخر من الفراش فاقتربت مني ووضعت يدها على رأسي وبدأت بالعبث في شعري مرة أخرى بتلك الأنامل الطويلة وقالت:

هل أنت متوتر؟

فقلت لها: بعض الشيء..

فقالت: لا تخف لنتحدث قليلًا فالوقت ما زال مبكرًا على إتمام الزفاف.

أحسست في تلك اللحظة أنني العروس وليس العريس فقد كانت ممسكة بزمام الأمور وتحكمت في كل شيء وأنا لم يكن همي ومصدر قلقي سوى كلمة أقولها بالخطأ تعكر مزاجها وتودي بحياتي.

لم أتحدث في البداية فلم أكن أعرف ما هي الموضوعات المناسبة التي يمكن مناقشتها مع شيطانة لكن الجمود بيننا انكسر عندما قالت:

هل تجدني جذابة؟

فقلت: ماذا؟.. ماذا تقصدين؟

قالت: يمكنني التشكل بشكل آخر لو أحببت

فقلت: لا أبدًا أنتِ جميلة بما يكفي

فقالت: ماذا تقصد بما يكفي؟

فقلت: لا أعرف.. لماذا تتربصين لكل كلمة أقولها؟

فضحكت (جند) بقوة وفي تلك اللحظة تذكرت ضحكتها. لقد كانت تلك المرأة التي سمعتها عندما كنت محبوسًا في المكتبة والتي أنكر (عمار) أنه كان يقضي معها تلك الليالي.

أجابت (جند) على سؤالي وهي تضحك بقول:

أنا لا أتربص لكلامك لكنك مختلف.

قلت: مختلف.. كيف؟

قالت: لا أعرف.. لست كباقي البشر الذين قابلتهم في حياتي.

قلت: ربما لم تقابلي عددًا كافيًا لتحكمي.

قالت: ربما..

أمضينا ساعات في الحديث تحدثنا في أمور كثيرة حكت هي عن عالمها وحكيت لها عن عالمي وكانت تضحك بقوة عندما كنت أحكي لها عن نظام الزواج عندنا وخاصة عندما أخبرتها عن المصاعب التي يواجهها الشاب في بلدي خصوصًا إذا عقد العزم على الزواج فقالت وهي تضحك:

نحن لا نفكر بهذه الطريقة أبدًا فالزواج عندنا يختلف وخاصة بنات القبائل الكبيرة مثلنا.

فقلت لها: وكيف يختلف؟

قالت: بنات زعماء القبائل لا يحق لهن الاختيار لذلك تجد أن أغلبهن يخترن لهن عشاقًا من الشياطين وأحيانًا من الإنس كي يمارسن حريتهن التي سلبت منهن بسبب تلك العادات البائدة.

فقلت لها: وهل كان لكِ عشيق قبل (عمار)؟

فقالت: لا.. لأن أبي يشدد عليّ كثيرًا ويغرقني بالحراس كي لا أغيب عن ناظره لذلك أحسد (جسار) على حريته.

فسألتها سؤالًا وكنت وقتها أخشى ردة فعلها منه لكني استجمعت شجاعتي خاصة بعد سماعي ضحكاتها وقلت لها:

قرأت في إحدى المدونات أن أباك نفى (جسار) وعاقبه بتقييده ليخدم السحرة وقد قام (جسار) بالتخلص من قيده بقتل الشيطان الذي قيده.. هل هذا صحيح؟

قالت: نعم لكن (جسار) لم يقتل ذلك الشيطان الذي قيده لم يكن ليستطيع لا بد أن شيطانًا آخر ساعده.

فقلت لها (وأنا على علم سابق أن (دجن) هو من ساعد (جسار) كما أخبرني حارس المقبرة):

ومن تعتقدين قام بمساعدة (جسار)؟

فقالت: ليتني كنت أعرف كي أقتله

فقلت بتوتر: ولماذا تريدين قتل من خلص أخاك من قيده؟

فقالت: لأن (جسار) عاد لأبي وكسب رضاه وأقنعه بأن يسامحه بشرط أن يقتل تلك الفتاة التي عشقها (جسار).

فقلت: وهل قتلها؟

فقالت: نعم.. قتلها هي وأهلها وكل من كان حولها في تلك الليلة الدموية المشؤومة.. ولم يكتفِ بذلك بل أحضر رأسها لأبي أيضًا فقط لكسب رضاه.

فقلت: وما علاقة رغبتك بقتل من ساعد (جسار) بما حدث؟

فقالت: لو لم يساعده لما ماتت تلك الفتاة المسكينة وأهلها ولا خسرت أنا حب واهتمام أبي الذي بدأ يراني بعد اختفاء ذلك المجنون من الصورة فمع وجود (جسار) في العشيرة أنا أختفي تمامًا وكأني ليس لي وجود.

فقلت لها: وهل يهمك أمر تلك الفتاة؟

فقالت: بصراحة لا لكني لا أحب الظلم لأني أعرف معنى الظلم وأتجرع من كأسه كل يوم.

فقلت: ماذا تقصدين؟

فقالت: هل تظن أنه من السهل أن يختار لك أحد شريك حياتك ويجبرك على الزواج منه وإرضاء رغباته رغمًا عنك.. هل تظن أن من السهل أن أُزف على كهل مثل (عمار) رغمًا عني؟

فقلت: ألم تستطيعي الرفض؟

فضحكت بصوت عالٍ وقالت: بدأت أشك أنك مدون!

فتوترت وخفت أن أنكشف فقلت لها ضاحكًا:

أنا أمازحك فقط!

فتوقفت عن الضحك ووضعت عينها بعيني ويدها خلف رأسي وقالت:

«ومتى سينتهي المزاح أيها المدون كي نتمم زواجنا؟»

فنهضت من السرير وقلت لها:

إذا كنتِ لا تريدين ذلك يا (جند) فلن أجبرك فأنا لا أريد أن تكون علاقتي الأولى مع شخص مجبور على البقاء معي..

قلت تلك العبارة وأنا في قلبي أقول:

«أتمنى أن تكون مجبورة فعلًا وتنتهز الفرصة وترحل»

لكنها أمسكت بيدي وقالت:

أنت لست مثل (عمار) وأنا لم أعد تلك الشيطانة التي تمانع معاشرة المدونين.

باتت (جند) تلك الليلة عندي وأتممنا الزواج..

أمضينا معظم تلك الليلة مستيقظين ولم تغفُ عيني إلا قبل الفجر بقليل خلال مداعبة (جند) لشعري. لم أعرف سر اهتمامها الشديد بشعري لكني لم أكن أمانع. استيقظت قبل شروق الشمس بدقائق على صوت (جند) وهي في طريقها للخروج فقلت لها:

إلى أين؟

قالت: سوف أرحل الآن قبل وصول (مسترقي السمع)

فقلت: مَن؟

قالت: هذه أول ليلة لك كمدون وسوف تسمع كل يوم قبل الشروق والغروب بعض الهمسات والأصوات عند أذنك ولن تتوقف هذه الأصوات حتى تدونها على الورق»

فقلت: كيف أدونها وأنا لم أجرب من قبل؟

قالت: أعرف لذلك نبهتك وحاول ألا تفكر في الكلام الذي تسمعه فقط دونه بلا تفكير في المدونة الخاصة بقبيلتنا

فقلت: أين هي؟

فأشارت لذلك الكتاب الأحمر الذي كنت أشاور نفسي على فتحه في السابق وعندما التفت لأسألها سؤالًا آخر اختفت.

الريشة الثقيلة

بعد ما اختفت (جند) بدأت بارتداء ملابسي وخلال ذلك دخل علي (دجن) كعادته مبتسماً تلك الابتسامة الصفراء وهو يقول:

«ها وش سويت يا عريس؟»

فقلت له بسخرية: لماذا لم تسترق النظر؟

فقال: يا خي أنت معلوماتك محدودة عن عالمنا.

فقلت: كيف؟ اشرح لي.

قال: حنا ما نقدر نراقب اللي نبي وبعض الشياطين عندها حصانة ضد الشياطين الثانية خاصة اللي تقل عنها في المرتبة.. أقصد أن خلوتك البارحة مع (جند) ما يقدر شيطان أقل منها رتبة يكون حولها لأنها بتحس فيه وبتذبحه.

فقلت له: كيف تتحدث معي هكذا بحرية ألا تخاف أن يسمعنا أحد الحراس؟

فقال: الحراس يا حبيبي ما يقدرون يسمعون الكلام إذا ما وجه لهم وهذا جزء من عملهم.

لبست آخر قطعة من ملابسي وقلت له: ما هي قصتك مع (جسار) ولماذا لم يقتلك؟

قال: جسار شيطان مجنون ولا يذكر شيء من اللي صار بيني وبينه لدرجة أني لما شفته يوم رحت لمكان تجمع قبيلة «الكثبان» عشان أطلب منهم الحماية لي ولك قابلني وقال لي:

«من أنت ولماذا أتيت؟»

فعرفت أن عقله يفوت ولا يتذكر شيء من اللي صار بيننا لما حررته.

فقلت ل(دجن): هل تعلم أن (جند) تريد قتلك؟

فقال باستغراب: ليه بعد؟

فحكيت له القصة التي قالتها لي (جند) فقال:

بدينا بمشاكل الحريم؟!.. ما عليك منها بس وانتبه لنفسك.

هم (دجن) بالرحيل فقلت له:

انتظر لدي سؤال يدور في ذهني منذ مدة ولا أعرف أحدًا يمكنه الإجابة عليه غيرك.

فقال: قل وش عندك..

فقلت: من هو الرجل الذي قابلته في القرية في زيارتي الثانية لـ(عمار) والذي أخذني لبيته وبعدها لحق بي ليوصلني لبيت (عمار)؟

فتغير وجه (دجن) وقال: وش دراني أنا؟!

فقلت: لدي إحساس بأنك تعرفه.

فقال: وليه تسأل طيب؟

فقلت: مجرد سؤال..

فقال: انسَ الموضوع وحاول تنسى هذا الرجال

فقلت: كيف أنساه؟

فصرخ وقال: انساه وبس يا خي !!

ثم رحل واختفى..

بعد رحيل (دجن) بدقائق بدأت أسمع تلك الوساوس التي قالت لي (جند) إني سأسمعها وفعلًا كانت مزعجة جدًّا ولم أستطع إخراجها من رأسي.

كانت تلك الأصوات متواترة وكأن عشرة أشخاص بأصوات مختلفة يهمسون في أذني في الوقت نفسه، كنت سأصاب بالجنون فتذكرت ما قالته (جند) عن تدوين ما أسمعه على الورق كي تتوقف الأصوات فذهبت مسرعًا للكتاب أو المدونة الحمراء وفتحتها حتى وصلت لصفحة بيضاء وأمسكت بالقلم وحاولت الكتابة لكن لم يظهر شيء على الورق فجربت بالقلم نفسه على يدي وملابسي فكتب بسهولة. عدت وحاولت الكتابة في المدونة فلم يظهر شيء، كنت أحاول أن أكتب والوساوس تنخر في أذني وعقلي حتى بدأ الصداع يفكك رأسي ويفتك به فبدأت بالصراخ لكن لم

يسمع أو يستجب لي أحد وبعد قليل تذكرت أن (عمار) كان يكتب بريشة ومحبرة ولم أرَه يكتب يومًا بقلم عادي فذهبت للمكان الذي كان يحتفظ فيه بالريشة والمحبرة وأخرجتهما وبدأت بالكتابة وفعلًا ظهرت أمامي الحروف والكلمات وبقيت عاكفًا على الورق الأبيض أكتب وأكتب حتى توقفت الوساوس.

كنا في موسم شتاء والغيم يغطي السماء دائمًا ولم أكن أعرف أنها أشرقت إلا من نورها لأن الغيم كان يغطيها معظم ساعات اليوم. المطر وصوت تساقطه كان لحنًا يعزف كل يوم على سطح البيت وعلى أطراف نوافذه. في الليل لم أكن أستخدم الكهرباء فقد كان (عمار) يعتمد على ضوء القناديل والشموع التي كان يتزود بها في كل مرة يخرج فيها. بعد ما انتهيت من تدوين وساوس الفجر بدأت في تصفح تلك المدونة الضخمة وبدأت أقرأ فيها كي يكون لي معرفة أكثر بمن أتعامل معهم.

قرأت في المدونة الكثير من الأخبار والأحداث التي تخص قبيلة «الكثبان» وتعرفت على بعض أسرارهم وبعض الأحداث المؤثرة في تاريخهم على الرغم من أن ما كان مكتوبًا لم يكن مكتوبًا بالطريقة التقليدية للكتب لكني في ذلك الوقت ألفت هذا النوع من الكتابة وتعودت عليه وأصبحت أستطيع أن أستخلص منه العلم والمعلومة التي أريد. قرأت في المدونة عن عودة (جسار) لأبيه وكيف سامحه أبوه عندما أحضر (جسار) رأس تلك الإنسية التي عشقها وكتب في المدونة

أن (جسار) فقد عقله بعد ما قتلها لكنه كان مضطرًا لذلك كي يوقف مطاردة أبيه وعشيرته له ويستعيد احترامهم الذي خسره بسبب عشقه لتلك الفتاة. كذلك قرأت عن التاريخ الدموي بين قبيلة (يعرم) الملقبين بـ «الأباطحة» وقبيلة «الكثبان» وكذلك الصراع المرير والطويل بين «الكثبان» وقبيلة «الصوارم» وهي القبيلة التي كان يرأسها (شند) قبل أن يحضره (عمار) ويطيح برأسه (مازع) في بيته.

تكلمت المدونة كثيرًا عن (مازع) أبي (جسار) و(جند) وزعيم عشيرة «الكثبان» فقد كانت أكثر الوساوس تأتي في وصف تحركاته وبطولاته أما الوساوس الباقية فكانت تتوزع على أحوال العشيرة. بحثت في المدونة عن معلومات أو روايات عن (جند) فلم أجد إلا القليل بالمقارنة مع ما يكتب عن (جسار) وصولاته وجولاته مع فتيات الإنس. ذكرت المدونة وتكلمت في بعض صفحاتها عن ثائر قوي يبحث عن الانتقام من العشيرة وكان في المدونة دائمًا وصف لتحركاته ومواجهاته مع أفراد القبيلة الذين كانوا يتحدثون عنه بخوف ورهبة لأن كل من واجهه قتل بوحشية. كان هذا الثائر يلقب ب (ملاس) وقد راح ضحيته الكثير من أفراد قبيلة «الكثبان» لكن لم يتضح في المدونة سبب هجومه المنظم والمتكرر عليهم أو ماذا كان يريد منهم.

انقطع حبل أفكاري وأنا أقرأ المدونة الحمراء عندما دخل علي (دجن) عند الظهر تقريبًا وقال:

شخبارك اليوم؟

فقلت له: رأسي يؤلمني وأحس بصداع رهيب.

فقال: عادي.. كل مدون أول مرة يصدع لكن بعدها بتتعود.

فقلت له: ما الذي جاء بك الآن؟

فقال: بصراحة عندي لك خبر ما راح يسعدك

فقلت بتوتر: ماذا.. قل ما عندك !

قال: قبيلة «الأباطحة» بعد ما عرفوا أنك تعينت مدون لقبيلة «الكثبان» وبالتالي حمايتهم لك كانت مؤكدة راحوا لقبيلة «الصوارم» قبيلة (شند) السابقة واللي تولى زعامتها الآن ابنته (إينار) وعقدوا معهم هدنة وتحالف ينتهي بموتك أو موت زعيم «الكثبان» (مازع).

فقلت له: وما المشكلة؟

فقال: شكلك تمزح صح؟.. قبيلة «الكثبان» صحيح إنها قوية وممكن تكون أقوى قبيلة موجودة الآن لكنها ما راح تتنفس لما تواجه تحالف مثل تحالف «الأباطحة» و«الصوارم» وما راح تدخل حرب خاسرة عشان سواد عيونك.

فقلت: ماذا يعني ذلك؟

فقال: يعني عظم الله أجرك في نفسك.

فقلت: وما العمل الآن؟! يجب أن تجد لي حلًّا فأنت من وضعني في هذا الموقف !!

بدأت عيني ترمش بقوة عندما بدأت بالصراخ على (دجن) فقال لي

وهو يبتسم:

الظاهر قرينك مو عاجبه الكلام.

فقلت له: دعك منه الآن.. يجب أن تجد لي حلًّا !!

قال: ما لك إلا أنك تهرب..

فقلت: أهرب؟!.. أهرب إلى أين؟!.. هل تريد أن يكون رأسي مطلوبًا لقبيلة «الكثبان» أيضًا؟

فقال: ما لك إلا هذا الحل.

ازداد رمش عيني وأنا أتحدث بانفعال وكان (دجن) يعلق وهو يضحك بتعليقات سخيفة كقول:

«قرينك شكله خايف أو معصب»

فقلت له: لا تضيع الوقت.. هل هناك حل آخر غير الهروب؟

فقال: ما أشوف في الوقت الحالي غير هالحل.

فقلت: لم أرَ من حلولك إلا المصائب.. اتركني الآن سوف أفكر أنا في حل بنفسي. خرج (دجن) وتوقف رمش عيني وبدأت أفكر في حل حتى غلبني النوم. استيقظت في المغرب على صوت وساوس الغروب التي أفزعتني من نومي ولم تتوقف حتى دونتها وقرأت في طياتها عن الاتفاق بين «الأباطحة» و«الصوارم» وتنامي قلق قبيلة «الكثبان» من هذا التحالف خاصة مع تزايد هجمات الثائر (ملاس) والذي بدأ يطيح

ببعض الأسياد من القبيلة ولم يكن لديهم الوقت والقوة الكافية لمواجهة مثل هذا التحالف. أدركت وقتها أنني يجب أن أرحل. جلست في البيت أفكر حتى المساء وعندما انتصف الليل جاءت (جند) لقضاء الليلة معي وكانت هيئتها هذه المرة متغيرة ولون شعرها مختلفًا كانت (جند) لكنها لم تكن (جند) كانت أكثر فتنة من الليلة السابقة. اقتربت مني ورأت نظرات الانبهار والتعجب في عيني وقالت:

«(عمار) لم يرَني بهذه الهيئة من قبل لكني أريدك أنت أن تراني بها».

أمضيت معها بضع ساعات وقبل موعد رحيلها سألتها وقلت:

من هو (ملاس) هذا يا (جند)؟

فأدارت رأسها نحو الباب وقالت بهدوء:

«ولماذا تسأل؟»

فقلت لها: اسمه تكرر كثيرًا في المدونة لكني لا أعرف الكثير عنه ولم أجد في الكتب الموجودة هنا شيئًا يتكلم عنه غير المدونة الخاصة بقبيلتكم.

فقالت: ولا نحن نعرف عنه الكثير.. كل ما نعرف عنه أنه قرين مؤمن وهذا النوع أشد أنواع الأقران قوة أقوى بكثير من أي قرين متمرد.

فقلت: حتى أبيك؟

فقالت: حتى أبي..

فقلت: ولماذا يطاردكم هذا القرين المؤمن لأني قرأت في المدونة أنه قتل الكثير منكم وبدأ مؤخرًا بقتل بعض الأسياد من قبيلتكم؟

فقالت: من النادر جدًّا أن يبحث قرين وبالذات مؤمن عن الثأر لصاحبه لكن (ملاس) كان مختلفًا.

فقلت لها: هل (ملاس) هذا قرين (سالم) أخي (عمار)؟

فقالت: نعم ومن حرره كان يريد منه قتل (سالم) لكن حدث العكس تمامًا.

فقلت لها: كيف.. لقد اختلطت الأمور علي؟

قالت: عندما ذهب (سالم) للعاصمة بحثًا عن (عمار) لم يجده إلا عندما لمحه في السوق مصادفة وهرب منه (عمار) ذلك اليوم فلما قرر (سالم) البقاء في العاصمة حتى يجد أخاه قرر أن يبيت تلك الليلة في العاصمة، وفعلًا بات في أحد الأماكن المستأجرة لكنه لم يعلم أن خبر وصوله قد وصل للساحر الكبير الذي كان (عمار) يعمل عنده فأرسل الساحر (جسار) له ولم يأمره بقتله لكن قال له:

«حرر قرينه وقرينه سيقتله بالنيابة عنا.. لا نريد دمه على أيدينا»

وفعلًا زار (جسار) وهو متشكل (سالم) في مسكنه ليلًا وعندما فتح (سالم) الباب قرأ (جسار) عليه أحد طلاسم تحرير القرين ورحل.

فقلت: وماذا حدث بعد ذلك؟

قالت: اتضح أن قرين (سالم) قد أسلم منذ مدة متأثرًا ب(سالم) وهو يحب (سالم) جدًّا ولا نية له في أذيته.

فقلت: وما المشكلة إذًا؟

قالت: قرين (سالم) ظهر ل(سالم) وحاول أن يعانق صاحبه من الفرح فطار عقل (سالم) من الخوف وبدأ بالصراخ طوال الليل.

فقلت: نعم صحيح.. لقد سمعت هذا الكلام من قبل.

أكملت (جند) حديثها وقالت:

هل تعرف أن قرين (سالم) جلس بجواره طيلة العشر السنوات التي كان فيها صاحبه مريضًا إلى ساعة وفاته وبعد وفاة (سالم) أقسم (ملاس) أن يأخذ بثأر صاحبه وأن يضع رأس (جسار) على قبره؟

فقلت: لذلك عاد (جسار) يتوسل لأبيك بأن يصفح عنه لأنه كان يحتاج الحماية.

قالت: بالضبط.. فبمجرد ما سمع (جسار) بقسم قرين (سالم) بأخذ الثأر من الذي حرره وتسبب في جنون ومرض (سالم) أدرك أنه هالك فهو لن يستطيع التفوق على قرين مؤمن مهما فعل وكان يحتاج حماية القبيلة لردع (ملاس).

فقلت: ولذلك كرهتِ من حرر (جسار)؟

فقالت: نعم فلقد كنا قد ارتحنا من (جسار) ومصائبه عندما كان مقيدًا لكن بعد تحرره لم نرَ غير المشكلات التي تجر القبيلة للهاوية يومًا بعد يوم.

فقلت: ولماذا لا تقتلين (جسار) بنفسك إذًا؟

فقالت: قتل من حرره لن يضرني فأنا أميرة ولي حصانة لكن قتل أخي وهو أمير مثلي سيرمي بي إلى التهلكة وسيجلب العار لأبي.

فقلت: وأين (ملاس) الآن؟

فقالت: لا نعرف لأن أكثر الشياطين الذين نرسلهم للبحث عنه لا يقومون بمهامهم خوفًا منه. لكن هناك وساوس تقول إنه عاد وسكن بيت (سالم) ليبقى مع أطفال وأحفاد سالم.

وفي تلك اللحظة تذكرت ذلك الرجل الذي نصحني في المسجد وأوصلني لبيت (عمار) وقلت في نفسي هل من الممكن أن يكون هو (ملاس)؟

سألت (جند) وقلت لها: لماذا لا تهجمون على بيت (سالم) بقوة كبيرة فمهما كانت قوة (ملاس) فهو لن يتفوق على أعدادكم الضخمة.

فابتسمت (جند) وقالت: ألا تظن أننا فكرنا في ذلك من قبل؟

فقلت: ولماذا لم تفعلوا إذًا؟

(جند): هجمنا بقوة على منزل (سالم) أكثر من مرة ومن جنون (جسار) اقترح عل أبي قتل عائلة (سالم) بأكملها كي نجبر (ملاس) على مواجهتنا لكن أبي رفض خاصة وأن حصانة المنزل قوية وكان هناك ملك يحرس المنزل كل ليلة. يبدو أن أحدهم يتحصن كل ليلة بالأذكار والآيات.

أنهت (جند) حوارها معي بقبلة مباغتة وكأنها تريد إغلاق الموضوع وعدم التحدث فيه أكثر. بتنا تلك الليلة في هدوء ولم أفتح معها الموضوع مرة أخرى. خرجت (جند) كعادتها قبل الفجر وبعدها حضر شياطين الوساوس وبدأت أدون وساوسهم حتى الصباح. عدت لأقرأ ما كتبته لأني في حالة الكتابة لا أستطيع استيعاب المكتوب لكوني في حالة أشبه بالهلوسة فلا أدرك ما خطته يميني.

بدأت بالقراءة وبصراحة كنت أبحث عن أي أخبار عن (ملاس) لكن لم أجد شيئًا لأن أغلب الأخبار كانت عن (مازع) وأولاده السبعة وقلقهم المتزايد من التحالف بين «الأباطحة» و«الصوارم» ومطالبات (جسار) المستمرة بتوجيه ضربة مباغتة لهم لكن (مازع) كان يرفض دائمًا ويطلب من حراسه الاستمرار في تقصي أثر (ملاس). فأغلقت المدونة وأكملت نومي.

ليلة تحريك البيادق

مضت الأيام وأصبح يومي روتينيًا بين لقاءاتي مع (جند) في الليل وتدوين للوساوس عند الشروق والغروب والنوم أغلب النهار بالإضافة إلى زيارات متقطعة من (دجن) والتي كنت أتوق إليها لأنه الوحيد الذي كان يستطيع إضحاكي في تلك الفترة. بدأت أنسى موضوع الهروب خاصة وأن (دجن) طمأنني في إحدى زياراته أنه لا يوجد تحركات من جهة قبيلة «الصوارم» أو قبيلة «الأباطحة» بعد تحالفهم بل على العكس حدث نوع من الهدوء النسبي بين القبائل. بعد عدة أشهر وفي يوم ماطر وأنا أقرأ ما كتبته بعد تدوين وساوس المغرب لمحت اسم (ملاس) بين السطور ففتحت عيني أكثر وركزت انتباهي وقرأت ما كتب فوجدت أن (ملاس) قد تمكن من قتل أحد أبناء مازع وكان اسمه (صان) والعشيرة مقلوبة لهذا الخبر وبعد ساعات من قراءتي لهذا الخبر دخل علي أحد الحراس الموكلين بحراستي وقال:

«سيدي المدون الأميرة (جند) لن تتمكن من الحضور الليلة وأنا ومن معي من الحراس تم استدعاؤنا لحضور مراسم الجنازة لذلك لا تخرج الليلة من دارك كي لا تصاب بأي أذى»

قال الحارس هذه العبارات ثم اختفى..

لا أنكر أني شعرت بالخوف في البداية لكني في الوقت نفسه شعرت بالارتياح لأني استعدت الحرية التي سُلبت مني منذ فترة طويلة ولو كان ذلك لبضع ساعات. وبينما كنت في نشوة هذا الإحساس خرجت لخارج الدار أتنفس هواء الجبل الأخضر العليل وفي لمح البصر خرج (دجن) وقال:

يلا هذي فرصتنا الوحيدة يلا خلنا نروح !

فقلت له بتعجب: إلى أين؟

قال: ما عليك أنا مرتب كل شيء بس تعال!

مد (دجن) يده في إشارة لي كي أمسكها وفعلًا أمسكتها فوجدت نفسي أمام منزل (سالم) فأدرت نظري نحو (دجن) وقلت له:

ما الذي نفعله هنا؟

فقال: لا تخاف ادخل وما جاك بوجهي.

فقلت وأنا في طريقي للدخول:

وجهك لا يتحمل كل ما أصابني بسببك.

فضحك (دجن) وخف صوت ضحكه كلما تقدمت داخل منزل (سالم) أو في الحقيقة منزل ابن (سالم). جلست في مكان أشبه بالمجلس المخصص للضيوف وبعد دقائق ظهر لي ذلك الرجل الذي أوصلني لمنزل (عمار) في زيارتي الثانية فوقفت مفزوعًا فقال:

«اجلس يا بني فأنا لن أوذيك..»

جلست وعيني عليه لم تفارقه لثانية وبعد دقائق من الهدوء بيننا. بدأ يتكلم الرجل معي وحكى لي أنه قرين (سالم) وحكى لي كذلك القصة التي أخبرتني بها (جند) لكنه أضاف بعض الإضافات التي كانت تجهلها (جند) مثل أنه حاول بعد موت (سالم) أن يذهب ل(مازع) ويقتله لكن الحراس حوله كانوا أكثر من أن يواجههم كلهم وحده فعقد العزم على تجنيد من يشاركه هدفه في قتل (مازع) من الأقران المتحررين والمنشقين من القبائل الثائرة على (مازع) وخلال تلك السنين جمع (ملاس) مجموعة لا بأس بها من الأقران والشياطين لكنهم ما زالوا أقل من أن يخوضوا معركة ضد (مازع) وقبيلته. سكت قليلًا بعد حديث (ملاس) معي ثم قلت:

وما علاقتي أنا و(دجن) بالموضوع؟

فقال: بعد مقتل (صان) على يدي سيكون اهتمام (مازع) الآن منصبًّا على الثأر لابنه وسوف تكون حمايتك آخر اهتماماته وقبيلة «الأباطحة» و«الصوارم» قد عقدوا العزم على قتلك خلال الأيام المقبلة و(مازع) وقبيلته لن يخوضوا حربًا خاسرة من أجلك وستقتل أنت و(دجن) في لحظات.

فقلت: وماذا تريد مني أن أفعل؟

قال: ساعدني في كسر شوكة (مازع)..

فقلت: كيف.. أنا مجرد إنسي ضعيف ولست بقوتكم؟

قال: مكني من قتل (جند) وبذلك سينهار (مازع) وستتمكن من الهجوم عليه وهو مصدوم بمقتل ابنته بعد مقتل ابنه بيوم واحد فقط.

فقلت: مستحيل.. لن أساعدك على قتل (جند) !

فصرخ في وجهي وقال:

هل أصبحت تدافع عن الشياطين الآن.. أم أنك وقعت في حب ابنة (مازع)؟!

فقلت: لا هذا ولا ذاك لكن لا أريد أن أشارك بقتل أحد حتى وإن كان شيطانًا.

فقال: لقد شاركت في قتل (عمار) بمساعدتك ل(دجن).

فقلت له بصوت مرتفع: (دجن) خدعني ولو كنت أعرف نيته لما ساعدته !!

فقال: لا ترفع صوتك في وجهي أيها المدون !!

فسكت..

بعد ثوانٍ استأنف (ملاس) الحديث معي وقال:

هل تعرف أن (دجن) قتل (عمار) بأمر مني؟

فقلت: ماذا؟!.. بأمر منك؟

فقال: نعم.. ف(دجن) قرين متمرد مثلي ويريد الانتقام من (جسار) لما حدث بينهما في الماضي لذلك كان من السهل تجنيده.

فقلت: وأنا أرفض أن تجندني وإذا كنت تريد قتلي فافعل.

سكت (ملاس) فترة بعد ما رأى أني مصر على عدم المشاركة في قتل (جند) ثم قال:

أنا لن أقتلك لكن قبيلة (يعرم) وحلفاءهم سيفعلون ذلك بدلًا عني.

فقلت: فليكن.. هذا ليس سببًا لأقتل (جند) أو غيرها.

سكت (ملاس) مرة أخرى ثم قال:

حسنًا.. لن نقتل (جند) لكن إذا أردت حماية مني ومن معي يجب أن تساهم معنا في المواجهة مع (مازع).

فقلت: وكيف أساهم في مواجهة بين شياطين؟

فقال: أعرنا قرينك..

فقلت: ماذا.. قريني؟

فقال: كما سمعت.. سوف أحرر قرينك ليشارك معنا في الهجمة على (مازع) وبهذا تكون واحدًا منا ونتكفل بحمايتك.

فقلت له: وإذا رفضت؟

فقال بغضب: سنرميك عند قبيلة «الأباطحة» كي يمزقوك أنت وقرينك ولا تظن للحظة أني لن أفعلها!

في تلك اللحظة بدأت عيني ترمش بقوة فوضعت يدي على عيني فقال (ملاس) وهو يبتسم:

هذا قرينك يرجوك أن توافق فهو خائف على نفسه أكثر منك.

فقلت ويدي ما زالت على عيني:

سأوافق بشرط..

فقال (ملاس): ليس لك الحق في وضع شروط خاصة وأن حاجتك لنا أكثر من حاجتنا لك.

فقلت له:دون هذا الشرط لن أوافق وأنا أعني ما أقوله.

نظر (ملاس) للأرض لدقائق وكأنه يفكر في كلامي ثم قال:

ما هو شرطك؟.. وتذكر أني لست ملزمًا بتنفيذه.

قلت له: شرطي هو أن تجيب على سؤال واحد بكل صدق دون كذب.

فقال: سؤال؟.. ما هو سؤالك؟

فقلت: بما أن (دجن) تحت حمايتكم فهو لا يحتاج حماية من «الكثبان» فلماذا قام بكل ما قام به كي يوفر لنفسه حماية من القبائل الأخرى ما دام في حمايتك؟

سكت (ملاس) وكأنه لا يريد الإجابة ثم قال:

لأنه كان يريد حمايتك أنت.

فقلت: أنا؟ ولماذا يريد حمايتي فأنا مجرد إنسي جمده في الماضي؟

قال (ملاس) وهو يهم بالنهوض:

لا أعرف اسأله هو.. أعطني جوابك الآن أيها المدون هل أنت معنا؟

فوافقت على مضض لأن خياراتي كانت معدومة وبدأ (ملاس) بقراءة طلاسم تحرير القرين علي فتحرر. ظهر قريني أمامي وكان نسخة مطابقة لي لكنه فاقد إحدى عينيه. ابتسم ثم اندفع نحوي وعانقني قريني وقال:

«شكرًا.. أعدك أن أكفر عن ذنبي في مقتل (يعرم)»

وضعت يدي وأنا مرتبك ومتعجب جدًّا على كتفه وقلت:

«لا بأس فقط حاول ألا تموت».

رحل (ملاس) وتبعه قريني وبعدها دخل علي (دجن) وقال:

وأنا بعد لازم أروح معاهم..

فقلت: إلى أين؟

فقال: بعد ما انضم قرينك معانا خلاص صرنا مستعدين للهجوم على (مازع) وقبيلته.

فقلت له: كم عددكم؟

قال: مئة قرين متمرد ثلثهم مؤمن والباقي شياطين»

فقلت: وقبيلة «الكثبان»؟

قال: خمسة آلاف شيطان نصفهم أقران متمردة والباقي شياطين سفلية بالإضافة ل(مازع) وأبنائه.

فقلت له: ألا تعتقد أن الكفة ليست في مصلحتكم؟

فقال: إحنا ما راح نواجه القبيلة كلها إحنا راح نهجم على (مازع) مباشرة ونضربه ضربة رجل واحد و(ملاس) حط خطة محكمة لهذه الهجمة.

فقلت: وماذا لو قتل قريني في هذه المعركة؟

فقال وهو يبتسم:

لا تخاف وصينا ابن (سالم) أنه يرجع جثتك لأهلك..

و بعدها اختفى (دجن) للحاق بهم.

دخل علي ابن (سالم) بعد أن رحل (دجن) للحاق ب(ملاس) وجيشه ولم أحتج لسؤاله عن شيء لأنه كما يبدو كان يعرف كل شيء من اللحظة الأولى التي قابلني فيها أول مرة وأخذني للمقبرة.

جلست معه في صمت حتى اقترب الفجر وطلبت منه ريشة ومحبرة كي أدون الوساوس الفجرية فقال:

لا داعي لذلك الآن، فقبيلة «الكثبان» مشغولة بكل جنودها في محاولة لتخليص (مازع) من تقدم (ملاس) بمن في ذلك شياطينها المكلفة بالوسوسة.

فقلت له: ماذا تقصد.. ؟ هل بدأت المواجهة؟!

فقال: نعم منذ اللحظة التي لحق بها (دجن) المجموعة

فقلت: وماهي الأخبار؟

فقال: سقط منا الكثير لكن ضحاياهم أكثر.

فقلت: وماذا عن قريني هل مات؟

فضحك ابن (سالم) وقال:

كيف ماتَ وأنت أمامي الآن؟

ثم سألته عن القماش الأبيض الذي كان بين يديه وعن سبب إحضاره معه فقال:

هذا كفنك في حال موت قرينك ستسقط هنا أمامي ويجب أن أدفنك فورًا حتى تتضح الصورة. فبلعت ريقي الذي جف من الخوف وبقيت أنتظر نتائج تلك المواجهة. أغمض ابن (سالم) عينيه ودخل في حالة من الكمون. بعد ساعة من الانتظار بصمت نطق ابن (سالم) وهو مغمض العينين وقال:

«المعركة تنقلب ضدنا.. خسرنا الكثير من الأتباع.. (جسار) و(جند) هما آخر أبناء (مازع) الذين لم يسقطوا حتى الآن و(مازع) محاط بألف شيطان و(ملاس) يأمر (دجن) وقرينك بالتقدم نحوه.»

جلست أسمع تلك الأخبار المتقطعة وأنا أرتجف وأرتعد أنتظر اللحظة التي يسقط فيها قريني لأسقط معه. استمر ابن (سالم) بالتمتمة بأخبار المعركة حتى قال:

«أصيب (ملاس) و(دجن) يقف بجانبه يذود عنه»

فكانت ردة فعلي الوحيدة هي بقول:

و قريني ماذا حل به؟!

لكن ابن (سالم) لم يكن في وعيه كي يرد علي. استمر ابن (سالم) في سرد الأحداث حتى قال كلمة هزتني وزادت الرعب الذي فاض به

صدري حيث قال:

««الأباطحة» وحلفاؤهم دخلوا المعركة عندما علموا أن قرينك مشارك فيها وأمروا شياطينهم باستهدافه»

هنا وفي تلك اللحظة بدأت بالتشهد والاستغفار وأنا أرتجف من الخوف لأني أيقنت أن ساعة الرحيل عن هذه الدنيا قد حانت. وأنا في تلك الحالة أصبت بالإغماء وغبت عن الوعي. استيقظت عند الظهر في مجلس بيت ابن (سالم) وكان المكان هادئًا ولا أثر لابن (سالم) في المجلس ولم أرَ سوى كفني ملقى أمامي. بعد قليل دخلت علي حفيدة (سالم) الصغيرة ومعها بعض الطعام ووضعته أمامي وقالت وهي مبتسمة:

«كل».. ثم رحلت..

أخذت أبحث بنظري في الغرفة عن أحد ليخبرني بما حدث فلم أجد فنهضت ولم أتناول الطعام الذي أحضرته حفيدة (سالم) وخرجت خارج الدار لكني لم أجد أحدًا كذلك، سمعت أذان الظهر الذي لم أسمعه منذ مدة طويلة فتوجهت للمسجد كي أصلي بحثًا عن الراحة. بعد انتهاء الصلاة بدأت أبحث بين المصلين بنظري عن ابن (سالم) ولم أجده لكني سمعت الإمام يقول:

«الصلاة على الميت يرحمكم الله»

فصليت معهم وتبعت الجنازة وسألت أحد المشيعين عن اسم المتوفى فقال:

«إنها (فاطمة) ابنة الشيخ (سالم) يرحمه الله»

فتوقفت عن السير في الجنازة حتى ابتعدت عني ولم أكن أعرف ماذا أفعل، كنت محتارًا بين العودة لمنزل (سالم) أو العودة لمنزل (عمار) أو العودة لبلدي. كنت مشتتًا وغير قادر على اتخاذ قرار. وأنا في حيرتي هذه في وسط الشارع ظهر لي (دجن) ولأول مرة أفرح لرؤيته وقال لي بتوتر واستغراب:

وش موقف كذا في وسط الشارع؟!

فقلت: لا أعرف.. ماذا تقصد؟

فقال: تعال.. تعال خلنا نروح لبيت (سالم) !

ذهبنا لبيت (سالم) ودخلنا للمجلس الذي كان فارغًا ثم جلسنا وكنت أنتظر تفسيرًا من (دجن) عن ما حدث بالأمس ونتيجة المواجهة لكنه ضل صامتًا ينظر للباب فبادرته بالسؤال وقلت:

ماذا حدث بالأمس وأين قريني وقرين (سالم) وابن (سالم).. ما الذي حدث؟

سكت (دجن) وكان يبدو متوترًا ثم قال:

والله ما أدري أيش أقول لك لكن السالفة تعقدت..

فبدأ قلبي بالخفقان وقلت له:

أخبرني كفاك مراوغة أرجوك.. !

فقال: طيب خلاص بقول لك لكن خلك هادئ ولا تقاطعني.

فقلت له بحسرة.. تفضل لن أقاطعك..

أحداث المعركة كما رواها (دجن)

قال لي (دجن) إنهم ذهبوا مع (ملاس) والمجموعة التي معه لمكان تجمع قبيلة «الكثبان» وكانت الخطة هي الاقتراب من مكان (مازع) قدر الإمكان والانقضاض عليه فجأة بكل قوتهم لكن تسللهم كشف قبل وصولهم للنقطة التي كانوا يريدون الهجوم منها فدخلوا في معركة طاحنة مع «الكثبان» وأدرك (ملاس) عندها أنهم سيهلكون لو استمروا في القتال معهم خاصة وأن (مازع) بدأ بتحصين نفسه بإحاطة مكانه بالشياطين المقاتلة وأمر جميع أبنائه بالتجمع حوله فقرر (ملاس) أخذ ثلث المجموعة والذهاب لمكان (مازع) في مهمة شبه انتحارية وكان من ضمن الذين اختارهم (ملاس) هم (دجن) وقريني وقرين ابن (سالم) وقرين أخته (فاطمة).

توجهت المجموعة الانتحارية التي اختارها (ملاس) للهجوم على مكان تحصن (مازع) ودارت معركة دموية راح ضحيتها كل أبناء (مازع) ما عدا (جسار) و(جند) وقتل منا قرين (فاطمة) وأصيب (ملاس) إصابة بليغة لأنه كان يندفع بقوة نحو (مازع) رغبة منه في حسم المعركة بقتله

لكن الشياطين حول (مازع) كانوا أقوياء وكانوا ل(ملاس) بالمرصاد. استمرت المعركة لساعات وبدأت بوادر النصر تظهر بتساقط الحراس حول (مازع) ولكن انقلبت الأمور عندما تفاجأ (ملاس) وأتباعه بدخول قبيلة «الأباطحة» للمعركة وهم يصرخون: «الثأر (ليعرم)» فعلم الجميع أنهم سيستهدفون قريني في البداية فارتبكت صفوف (ملاس) ومن معه وبدأ «الأباطحة» بالهجوم عليهم كي يصلوا لقريني وانشغل (ملاس) وأتباعه في صد هجوم «الأباطحة» والدفاع عن قريني مما تسبب في خسائر كبيرة بين صفوف أتباع (ملاس).

استغل (مازع) وجيشه انشغال (ملاس) وأتباعه برد هجوم «الأباطحة» على قريني والفوضى التي أصابت أرض المعركة لإعادة ترتيب صفوفهم ومشاركة «الأباطحة» في الهجوم على قريني الذي كان يقاتل بجانب (ملاس) وبعد قتال طويل سقط ضحيته الكثير تم محاصرة (ملاس) وفرقته الانتحارية. ما زاد الأمر سوءًا هو أن المجموعة التي تركها (ملاس) لصد جيش «الكثبان» خلفهم قد خسروا مواجهتهم وقتلوا جميعًا مما جعل جيش «الكثبان» المتبقي من تلك المواجهة يغير اتجاهه نحو الفرقة البسيطة التي كان يقودها (ملاس) والتي كانت ما تزال تواجه جيش «الأباطخة» وحراس (مازع) وحدها.

بدأ (ملاس) ومن معه بالمقاومة ولأن صفوفهم كانت ممتلئة بالأقران المؤمنين استطاعوا مقاومتهم لفترة طويلة أسقطوا خلالها الكثير من

شياطين «الأباطحة» و«الكثبان» لكن كثرتهم وتكالبهم عليهم كان يقودهم لهزيمة حتمية. عندما أدرك (ملاس) ذلك وأن المسألة كانت استنزافًا حقيقيًا لمجموعته التي ستسقط لا محالة بعد فترة من الزمن وإن طالت قرر أن يغير خطته ونادى قرين ابن (سالم) وهمس في أذنه ثم اختفى قرين ابن (سالم) بسرعة. بعد دقائق من اختفاء قرين ابن (سالم) جاءت أوامر من (إينار) زعيمة قبيلة «الصوارم» لقبيلتها بنقض عهدهم مع «الأباطحة» والدخول في المعركة لمساعدة (ملاس) والتركيز على قتل (مازع). انقلبت المعركة وبدأ «الصوارم» بتوجيه ضربات موجعة لجيش «الأباطحة» وجيش (مازع) من الخلف وكان جنودهم يتساقطونِ واحدًا تلو الآخر.

بعد عراك طويل كانت الغلبة لـ(ملاس) وجيشه ومن معه من «الصوارم» وتم إبادة جيش «الأباطحة» وجيش (مازع) بأكمله عدا من فر وهرب من أرض المعركة بمن فيهم (جسار) و(جند). قبضت الفرقة المنتصرة على (مازع) وعلى زعيم قبيلة «الأباطحة» وفصلت رؤوسهما عن أجسادهما على مرأى ومسمع الجيش. تقدم (تكاش) قائد جيش «الصوارم» وأحد أبناء (شند) زعيم قبيلة «الصوارم» السابق الذي قتله (مازع) في بيت (عمار) ورفع رأس (مازع) وهو يصرخ بين الحشود ثم وضع رأس (مازع) تحت أقدام (ملاس) وقال له:

«أختي (إينار) تشكرك على مساعدتنا كي نصبح القبيلة المتسيدة بين القبائل وتقدم لك رأس (مازع) في المقابل»

هنا قاطعت (دجن) وقلت له:

وما هو المزعج في الأمر؟.. هذه أخبار مفرحة.. لقد انتصرنا!

فقال (دجن):

خلني أكمل لك إيش اللي صار بعد كذا..

فقلت له: تفضل..

شرح لي (دجن) كيف أنه بعد الانتصار الساحق لهم قررت قبيلة «الصوارم» العودة وسحب جيشها وبقي بعد ذلك (ملاس) وأتباعه يبحثون عن الناجين فلم يجدوا إلا ٢٤ تابعًا كان من ضمنهم قرين ابن (سالم) و(دجن).

فقلت ل(دجن): وماذا عن قريني؟

فقال إنهم توقعوا أنه قتل في المعركة خاصة وأن معظم شياطين «الأباطحة» كانوا يستهدفونه في حموة القتال، فظنوا أني مت وبدأ ابن (سالم) في مراسم دفني لكنه تفاجأ عندما وجدني ما زلت أتنفس فتركني مكاني وذهب للتحضير لجنازة أخته. سكت (دجن) بعدها ثم قال:

حتى أنا تفاجأت لما شفتك بين صفوف المشيعين لجنازة (فاطمة).

سكت قليلًا ثم قلت:

ما معنى هذا الكلام؟.. أين ذهب قريني؟!

فقال (دجن): قرينك هج وما ندري وين راح..

فقلت: نعم؟!!.. هل تقصد أنه هرب؟!.. و لماذا يهرب؟!

قال (دجن): ما أدري.. لا تسألني..

فقلت بغضب: ومن الذي يعرف إذًا؟!

وخلال نقاشنا الذي بدأ يحتدم دخل علينا (ملاس) ومعه قرين ابن (سالم) وآخرون وقال:

«قرينك وقع في أسر من تبقى من قبيلة (مازع) و«الأباطحة» وهم الآن يساومون عليه»

.. فصمت قليلًا ثم قلت: وماذا يريدون في المقابل؟

قال: يريدون من قتل ثلاثة من إخوانهم في المعركة وقتل (عمار) وقتل رئيس زعيم قبيلة «الأباطحة» نفسه.

فوجهت نظري إلى (دجن) الذي كان ينظر لـ(ملاس) وهو مصدوم. فقال (ملاس):

اتخذوا قراركم قبل المغرب إما أن نسلم لهم (دجن) ونستعيد قرينك أو سيتم إعدام قرينك عند منتصف الليل.

خرج (ملاس) ومن معه وبقيت أنا و(دجن) في صمت حتى نطق (دجن) وقال:

أنا بروح لهم..

فقلت: لا.. دعهم يقتلوا قريني.

فقال: ما تترك عنك الهياط أبد..

فقلت له: لن أسامح نفسي على ذلك وهذا ذنبي كما قال لي (عمار) وأنا أستحق ما سيحدث لي.

فقال (دجن):

ومن اللي قال لك إنه ذنبك؟.. أنا اللي ورطتك مع قبيلة (مازع) وأنا اللي تسببت في كل هالمشكلة.. و بيني وبينك أنا زهقت وما عندي شيء أخسره.

فقلت له: لا.. سوف أخبر (ملاس) بقراري.

ولكن عندما هممت بالخروج لإخبار (ملاس) بأني ذاهب بدلًا عن (دجن) سقطت على الأرض مغشيًّا علي. استيقظت في المساء على صوت بعض الطلاسم القريبة من مسمعي فنظرت فإذا به ابن (سالم) يقول لي:

لقد عاد قرينك بجانبك الآن وقد انتهيت للتو من ربطه بك.

فقلت له وأنا أستيقظ: وماذا عن (دجن).. ؟

قال لي: (دجن) أخبرنا باتفاقكما على تسليم نفسه وتم الأمر منذ نصف ساعة».

فدفعت ابن (سالم) وخرجت أجري لمنزل (عمار) وابن (سالم) يصرخ خلفي ويقول:

إلى أين ستذهب؟!

لم أرد عليه وبقيت أجري وأجري حتى وصلت لبيت (عمار) ودخلت وفتحت كتاب تحضير أسياد الجن وبدأت أبحث فيه وفجأة ظهر لي (ملاس) وقال:

ماذا تظن نفسك فاعلًا؟!

فقلت له ولم أرفع عيني عن الكتاب:

سوف أنقذ (دجن)..

فصرخ بغضب وقال: ألم يكن هذا اتفاقكما؟!

فشرحت له ما حدث.. فأغلق الكتاب بيده وقال:

لقد قضي الأمر فلا تثِر حربًا جديدة أيها المدون!

فقلت له: هل قتلت من حررك وقتل (سالم)؟

فقال: ماذا تقصد؟

فقلت له: (جسار) هو ندك الحقيقي وليس (مازع) وهو الهدف من كل ما قمت به ومع ذلك فهو ما زال على قيد الحياة وسوف يقتل أكثر شخص ساعدك في معركتك وثأرك. فغضب (ملاس) ونزع الكتاب من يدي وقال بصوت مرتفع:

لن أسمح لك بفعل ذلك!!

فقلت له: (دجن) قتل (عمار) من أجلك وقتل الكثير في تلك المعركة دفاعًا عن ثأر لا علاقة له به والآن وبكل سهولة تتخلى عنه؟!!

قال: هذا لمصلحة الجميع.

فقلت: لا توجد مصلحة إلا لك!

فسكت (ملاس) قليلًا وهو ما زال ممسكًا بالكتاب في يده ثم قال: ماذا تريد أن تفعل أيها المدون؟

فقلت له: نستخدم الكتاب لأسر (جسار) وإحضاره هنا مقيدًا والمساومة عليه بـ(دجن)!

فقال: وإذا لم توافق (جند) على هذه المساومة؟

فقلت له: يجب أن نحاول !

وضع (ملاس) الكتاب في يدي وقال:

حضِّر (جسار)..

شيطان على كف عفريت

بدأت بتحضير (جسار) بعد ما أرشدني (ملاس) للطلسم الذي يقوم بذلك في الكتاب الخاص بتحضير الأسياد وخلال دقائق ظهر (جسار) مقيدًا في بيت (عمار) وهو يصرخ قائلًا:

«سأقتلك أيها المدون السافل وسأقتل كل أفراد عائلتك وسأجعلك تندم على ما فعلت!!»

فلطمه (ملاس) لطمة أفقدته الوعي وقال:

ماذا الآن أيها المدون؟

قلت له: ألا يوجد طلسم لتقييد (جند) في الكتاب؟

فقال: لا.. فـ(جند) لم تصنف يومًا من الأسياد.

فقلت له: اذهب لها إذًا وساومها على حياة (جسار) في مقابل تحرير (دجن).

فقال: حسنًا.. لكن أرجو أن لا أندم على مساعدتي لك..

فقلت له: أنت تساعد نفسك بمساعدتك لي.

و ذهب (ملاس) واختفى..

غاب (ملاس) لأكثر من ساعة وخلال هذه الساعة استيقظ (جسار) وقال بهدوء وهو ملقى على الأرض:

أنت أغبى مدون رأيته في حياتي..

فقلت له: اخرس أيها الشيطان ولا تتكلم..

فقال: هل تظن أن (ملاس) يريد قتلي؟.. لو كان يريد قتلي لفعل ذلك منذ أن قيدتني هنا لكنه يريد قتل من حرره وتسبب في موت صاحبه.

فقلت له: أنت من حررته وتسببت في موت (سالم).

فضحك (جسار) بصوت غليظ ومرتفع وقال:

أيها الأحمق (جند) هي من حررته بأمر من أبي وأنا كنت في الفترة السابقة مجرد حارس لها من (ملاس) !

فقلت له وأنا مصدوم:

أنت كاذب وتحاول خداعي لكنك لن تنجح!

فقال (جسار): (ملاس) يستطيع الآن أن يأخذ بثأره من (جند) لأن في المعركة كنت أنا من يقف حائلًا بينه وبينها وأنا من أصابه في المعركة لأنه لم يكن مهتمًا بقتل أبي بل كان يلاحق (جند) طيلة المعركة وقد خدعكم جميعًا لتحقيق مسعاه.

فقلت له: أنت كاذب فقد كان يمكنه أن يقتل (جند) عندما كانت تزورني وحدها.

فقال: (جند) لم تكن يومًا وحدها وفي كل زيارة لك كان معها ألف شيطان بقيادتي يقفون خارج المنزل لحمايتها من أي هجمة.

فصمت.. وبدأت بربط الأمور بكلام (جسار) ووجدت أن احتمال قوله الحقيقة وارد جدًّا مما زاد في حيرتي.

سكت قليلًا ثم قلت له:

وماذا عن (دجن)؟

قال: (دجن) مغرر به مثلك و(ملاس) لا يهتم لأمره أو أمرك فهو قرين مؤمن ولا يهتم للشياطين أو السحرة.

فقلت له: لا بأس فليقتل (جند) ويقتلك أنت أيضًا لا فرق عندي.

فقال (جسار) وهو يبتسم: بموتي أنا و(جند) أيها المدون سيبدأ (ملاس) بحملة تطهير كبيرة ستشملك أنت و(دجن).

بعد سماع كلام (جسار) بدأ القلق يدب في صدري وزادت حيرتي وكنت أتساءل هل (جسار) يقول الحقيقة أم أنه فقط يحاول أن يوسوس لي مثل أي شيطان؟ وخلال تفكيري وحيرتي قال (جسار):

«أطلق سراحي أيها المدون وسوف أعطيك ضمانًا بأني لن أمسك أنت و(دجن)».

فقلت له: وما هو هذا الضمان؟

فقال: سأرشدك إلى كتاب «العهد» لو قرأت طلاسمه فسأكون عبدًا عندك وبذلك لن أوذيك حتى لو أردت..

فقلت له: وماذا يثبت لي صحة الكتاب؟

فقال: ستعرف بنفسك أن الكتاب ليس بخدعة لأنه مكتوب بخط يد (عمار) وهو من الكتب التي ألفها بعد سنوات من امتهانه للسحر والشعوذة.

فقلت له: أين الكتاب؟

فقال: ستجده مدفونًا تحت شرفة المنزل اذهب وتحقق بنفسك..

فذهبت وحفرت عند شرفة المنزل وبالفعل وجدت الكتاب وعندما فتحته وجدت أنه فعلًا بخط يد (عمار) ووجدت في الصفحة الأولى سطرًا واحدًا فقط وكان يقول:

«حروف من نار خطتها ريشة عمار»

فدخلت على (جسار) والكتاب مفتوح في يدي فصرخ (جسار) وقال:

«لا وقت للقراءة أيها المدون اقرأ الصفحة العاشرة بسرعة!»

فقرأتها في لحظة لم أكن أفكر فيها بسبب ارتباكي من صرخات (جسار) التي زادت حدة وعنفًا.. و فجأة.. وبعد قراءتي للطلسم المكتوب في الصفحة العاشرة صرخ (جسار) وتحرر من قيوده ووقف أمامي يتنفس بأنفاس ثقيلة كالثور الهائج وعيناه مشتعلتان كالنار وعندها أحسست أني ارتكبت خطًا جسيمًا. نزل (جسار) على ركبته وأنزل رأسه أمامي وقال بهدوء:

هل تأذن لي يا سيدي باللحاق بـ(ملاس)؟

.. فسكت..

ثم أعاد (جسار) السؤال مرة أخرى وقال:

هل تأذن لي يا سيدي باللحاق بـ(ملاس)؟

.. كنت مرتبكًا ولم أعرف ماذا أقول فسكت..

فأعاد السؤال مرة أخرى وقال:

هل تأذن لي يا سيدي باللحاق بـ(ملاس)؟

وهذه المرة قلت له: نعم.. وفي لمح البصر اختفى (جسار)..

•

بقيت بعدها في المنزل أفكر في ما حدث وكيف تم التلاعب بي من شيطان إلى آخر وكيف أن هذا العالم غريب ومن الصعب معرفة من يقول الحقيقة فيه وأخذني التفكير إلى ماذا ستؤول إليه الأمور حتى غلبني النعاس. استيقظت قبل الظهر بقليل على صوت أحد يناديني من خارج المنزل ويقول:

«أيها المدون.. أيها المدون»

فخرجت من المنزل فوجدت رجلًا غريبًا لكني عرفت أنه شيطان فنزل على ركبته وقال:

«هل تأذن لي بالحديث يا سيدي؟»

فقلت له: تفضل..

فقال: الأمير (جسار) والأميرة (جند) يشكرانك على كرمك ومساعدتك لقبيلة «الكثبان» ومد لي كتابًا أخضر ثم وقف قال:

«سيدي (جسار) يخبرك أنه تحت أمرك في أي وقت تشاء»

فأخذت الكتاب واختفى الرجل..

دخلت المنزل وفتحت الكتاب فوجدت أنه كتب بصيغة التدوين التي بت أعرفها جيدًا وكان السطر الأول يقول:

«بعد الحصار حضر قرن الكثبان جسار»

فقرأت الكتاب وكان عبارة عن مدونة تحكي ما حدث منذ لحظة خروج (جسار) من عندي البارحة وحتى حضور الرجل الغريب بالكتاب عند بابي.

محتوى المدونة الخضراء

التي قدمها لي رسول (جسار)

كان الكلام المكتوب في المدونة مكتوبًا بلغة التدوين التي لا يفهمها أي شخص لذلك سوف أذكر خلاصة ما ذكر فيها:

«حضر (ملاس) كالبرق الغاضب وهجم على (جند) وهي تعذب (دجن) أمام من تبقى من قبيلتها وطرحها (ملاس) أرضًا وقال لها:

اليوم أقتص لصاحبي يا عاهرة!!

ضحكت (جند) وقالت:

صاحبك ينتظرك في الآخرة أيها المؤمن ولن أجعله ينتظر أكثر!

فاشتبكا تحت مرأى ومسمع أتباع (جند) وأتباع قبيلة «الأباطحة» المدحورة و(دجن) المقيد بينهم ينزف من أثر تعذيب (جند) له، منعت (جند) أي أحد من التدخل بينها وبين (ملاس) بالرغم من تفوق (ملاس) عليها حجمًا وقوة. استمر العراك بينهما مدة قصيرة حتى بدأت (جند) بالتقهقر أمام ضربات (ملاس) القوية، وقبل لحظات من انتصار (ملاس) الساحق الذي أصبح واضحًا للجميع ظهر (جسار) كالبركان

الغاضب وهجم على (ملاس) المتعب من النزال مع (جند) وبدأ في العراك معه، ولأن (جسار) لم ينهَ أتباعه عن المشاركة معه في الهجوم على (ملاس) فقد تكالبوا عليه وقتلوه. بعد موت (ملاس) توجهت (جند) لـ(دجن) لقتله فمنعها (جسار) بالقوة وقال:

هذا ينافي رغبة سيدي !

فصرخت (جند) في وجه (جسار) وقالت:

ومنذ متى ولك سيد يا(جسار)؟!!

فقال: منذ اليوم أنا مأمور لأمره.. ويجب أن تكوني ممتنة له فهو من حررني لإنقاذك.

فقالت بسخرية: ومن هذا السيد المجهول؟!

فقال (جسار): السيد (خوف)..

فصرخت (جند) بأعلى صوتها وقالت:

المدون الخائن؟!!

فصفعها (جسار) وقال:

احفظي لسانك ولا تتفوهي على سيدي بكلمة.

فرحلت (جند) غاضبة من المكان..

توجه (جسار) لـ(دجن) وفك قيده وقال له:

ارجع إلى سيدي وسيدك.

فرحل (دجن) ولم ينطق بكلمة..

في نهاية المدونة ذكر لي (جسار) أن القبيلة عينت مدونًا جديدًا وسوف يقوم بإرسال المدونات لي كي أحفظها أينما كنت وكتب لي طريقة للتواصل معه في أي وقت وفي أي مكان.

انتهت المدونة..

العودة إلى حياتي

عدت لبلادي بعد انتهاء الأحداث وكالعادة لم أجد شيئًا أقوله لأهلي وهم لم يصروا بالسؤال. كنت وقتها قد بلغت الخامسة والعشرين من عمري، أكملت دراستي الجامعية وتخرجت، وعشت حياة طبيعية لفترة تجاوزت الأربع السنوات وكانت مدونات قبيلة «الكثبان» تصلني بانتظام كلما امتلأت وهذا في العادة يحدث كل ثلاثة أشهر تقريبًا.

كنت أقرأ المدونات بحثًا عن أخبار القبيلة وأخبار العالم الذي هجرته منذ سنتين، وكنت أحيانًا أصادف الرسول الذي يوصلها لي فينحني أمامي ويضعها تحت قدمي وأحيانًا أستيقظ لأجدها بجانبي. يبدو أن (جسار) كان حريصًا على ألا يزعج منامي. عدا يومًا من ليلة طويلة قضيتها مع أصدقائي وكنت مرهقًا جدًّا وأريد النوم فدخلت غرفتي لأجد رسول المدونات ينتظرني على غير عادته فهو إذا لم يجدني بالغرفة ترك المدونة ورحل لكن يبدو أنه كان لديه أمرٌ آخر يريد أن يخبرني به، فجلست على طرف السرير وانحنى هو على ركبته كعادته وقال:

«هل تأذن لي بالحديث يا سيدي؟»

فأذنت له وقلت: تحدث بسرعة أريد النوم..

قال: «سيدي (جسار) يرسل لك سلامه ويبلغك أن المدونة التي معي قد تعكر صفوك لذا لك الخيار في قراءتها أو حرقها»

ومد الرسول المدونة لي فأخذتها واختفى..

ترددت في قراءتها في البداية لأني كنت متعبًا ولا أريد قضاء تلك الليلة في قراءة مدونة كاملة لكن وكما يحدث معي دائمًا تمكن الفضول مني وأدركت أن تجاهلها لن يريحني ولن يكون سهلًا وسيسلب النوم من عيني ففتحت المدونة وبدأت أقرأ.

تكلمت المدونة وكعادتها عن بطولات (جسار) ومعاركه مع القبائل الأخرى التي أخضع معظمها تحت إمرته وسلطته بالقوة بما فيها قبيلة «الصوارم» وأعاد بذلك مجد قبيلة «الكثبان» لسابق عهدها وأكثر، وكانت (جند) بجانبه في تلك الفتوحات الكبيرة. استمرت المدونة بالحديث عن قيام مجموعة لقبوا أنفسهم بـ«العشرة المؤمنين» وهم مجموعة من أتباع (ملاس) من الأقران المؤمنين الذين شاركوا في حرب الإطاحة بـ(مازع) بتنفيذ حملة من الاغتيالات في صفوف قيادات جيش (جسار) وكان (جسار) مستاءً منهم جدًّا.

في نهاية المدونة ذكر أن (جند) تعقبت (دجن) وقتلته قبل شهر وكان (جسار) قد كتب في آخر سطر في المدونة:

«لقد سجنت (جند) على ما قامت به وهي تنتظر أمر سيدي بالعفو أو الموت».

انتهت المدونة..

جحيم العودة للعالم السفلي

حزنت على (دجن) كثيرًا. كانت مشاعري نحوه في حياته متقلبة لكن مشاعري بعد خبر موته توحدت. كنت حزينًا على رحيل ذلك القرين المبتسم، لكن حزني عليه لم يدفعني للانتقام لموته بقتل قاتله لأن هذا لن يعيده فأرسلت لـ(جسار) بأن يعفو عن (جند). بعد ما تلقيت خبر موت (دجن) أرسلت لـ(جسار) بأن يتوقف عن إرسال المدونات لي وأن يرسل أحدًا ليأخذ المدونات التي تراكمت عندي خلال السنوات الماضية. نفذ (جسار) ما أمرته به ومضى أكثر من عام بعد ما أخذت جميع المدونات من غرفتي.

بعد انقضاء عام تقريبًا من توقف وصول المدونات لي كنت متوجهًا لغرفتي ذات مساء كي أستعد للخروج لمقابلة أصدقائي كعادتي اليومية التي لم أتركها فوجدت رسول المدونات والذي كان اسمه (يقلب) ينتظرني.. فسألته:

ماذا تفعل هنا يا (يقلب)؟

فرد علي وهو على ركبته وقال:

«سيدي (جسار) يطلب حضورك»

فقلت له: أخبر (جسار) أني لا أريد أن أذهب معك إليه فقد انتهت

علاقتي بكم وبعالمكم وحياتي عادت لطبيعتها ولا نية لي في العودة مرة أخرى لذلك أخبره أن يتوقف عن التواصل معي.

فقال: «العشرة المؤمنون» عرفوا طريقك وهم قادمون إليك ليقتلوك وسيدي (جسار) يريد أن يحميك منهم.

فوضعت راحة يدي على جبيني وأنا مغمض العينين وقلت في نفسي:

«متى أنتهي من هذا الجحيم؟».

أمرت (يقلب) بالانتظار في غرفتي وتوجهت لغرفة أخي وقلت له:

سوف أسافر لفترة بسيطة لإنجاز بعض الأعمال وأعود بإذن الله.

فنظر لي بحزن وقال:

«لا تكذب علي..»

عانقته وعدت لغرفتي ودخلت على (يقلب) وقلت له:

أين سيدك (جسار) الآن؟

فقال: لقد استقر في جبال الأطلس بعيدًا في أقصى الغرب.

فقلت: خذني إليه الآن..

فقال: «سمعًا وطاعة»

في غضون ثوانٍ وجدت نفسي في أقصى الغرب عند جبال الأطلس حيث هبط بي (يقلب) في أحد وديانها ثم تركني وقد كان الوقت ليلًا قرابة التاسعة مساءً، وكان المكان مهجورًا وحالك الظلمة فجلست على

الرمل البارد المختلط بالصخور الصغيرة حتى باغتني النوم. لم أنتبه إلا على صوت ينبهني ويقول:

«استيقظ سيدي المدون».

ففتحت عيني لأرى (جند) تمد يدها لي كي تساعدني على النهوض وبجانبها (جسار) وهو ينظر للأفق. وجهت نظري حيث كان (جسار) ينظر فرأيت في عتمة ذلك الليل منظرًا مهيبًا، رأيت الآلاف من الأعين المشعة مثل عيون القطط تنظر باتجاهي وعندما هممت بالوقوف انخفضت وكأنها ركعت على ركبها، أشار (جسار) بيده لانصرافهم وفي لمح البصر اختفوا جميعًا. التفت (جسار) نحوي وقال:

«مرحبًا بعودتك يا سيدي».

أمسكت (جند) بيدي وهي تبتسم وأشارت لي كي أتقدم نحو كهف كان خلفنا بين الجبال فمشيت معها وتبعنا (جسار) وعندما دخلنا الكهف أضاء المكان وكأن ألف شمعة قد أوقدت فيه. تقدمنا وتعمقنا داخل الكهف حتى أقبلنا على عرش ضخم من الصخور استقر في وسط الكهف، بعدها أشار (جسار) بيده لي للجلوس على العرش فتوجهت للعرش الذي كان أكبر من أن أجلس عليه فقد كان يناسب حجم جسد أكبر مثل جسد (جسار) لكني توجهت له وجلست عليه وفي لحظة جلوسي انحنى (جسار) وأخته (جند) أمامي وقالا بصوت واحد:

«ننتظر منك الأمر أيها السيد»

سكت قليلًا ثم سألت (جسار) وقلت:

عن ماذا تتحدثان يا (جسار)؟

فقال لي (جسار):

منذ رحيلك وأنا أعيد بناء مملكة أبي مملكة ال«كثبان» العظيمة لأعيدها لسابق مجدها وقد فعلت ذلك ولم أتوقف عند هذا الحد بل سيطرت على الكثير من القبائل التي لم تخضع للوائي.

فقلت له: أعرف ذلك يا (جسار) فقد قرأت كل ذلك في المدونات التي كنت ترسلها لي.

فقال: لكن ما لا تعرفه يا سيدي أن هناك من يعبث بمملكتي ويحاول تدميرها.

فقلت له: هل تقصد «العشرة المؤمنين»؟

قال: نعم.. فمنذ موت سيدهم الهالك (ملاس) وهم يحاولون الثأر له أو الموت شهداء في سبيل تحقيق ذلك.

فقلت له: لكن المدونات تذكر أن أعدادهم لا تتجاوز الألف وجيشك كما رأيت في الخارج أكثر بكثير من ذلك.

فقال: لو كانوا يواجهونني في معركة مباشرة لسحقتهم لكنهم يهاجمونني كرًّا وفرًّا وهذا الأمر يستنزف جيشي ويستنفد أعصابي.

فقلت له: وما دخلي أنا بهذا الموضوع يا(جسار)؟

فقال لي: بعد ما يئست من مواجهتهم وجهًا لوجه قمت بتجنيد قرين كافر بين صفوفهم لأنهم بعكس قائدهم الهالك لا يقبلون الشياطين

الكفرة بينهم لذلك جعلته يدعي أنه مؤمن ويريد أن يشاركهم في مسعاهم وهو مصدر معلوماتي الوحيد، وقد أخبرني بالأمس أنهم يسعون لقتلك.

فقلت: قتلي أنا؟.. ولماذا أنا؟

فقال (جسار): لأنك من حررني لقتل (ملاس) في تلك الليلة التي هجم فيها على (جند) في محاولته للثأر لمقتل صاحبه (سالم).

فسكت قليلًا ثم قلت: وماذا تنوي أن تفعل يا (جسار)؟

قال: سأحميك بإبقائك عندي حتى أبيدهم جميعًا!

فقلت له: (جسار).. معارككم تستمر لعشرات السنوات وقد أموت قبل أن تنتهي من إبادتهم.

قال: سوف أجعلك تعيش في نعيم ورغد لن تحتاج شيئًا من عالمك وأنت هنا بيننا.

فقلت له: هل تستطيع أن تعوضني عن أهلي وحياتي؟

قال: إذا أمرت فسوف أحضرهم جميعًا لك هنا.

فصرخت فيه دون تفكير وقلت له:

لا!.. لا تقحم أهلي في عالمكم !!

و لأول مرة أرى (جسار) خائفًا وكذلك (جند) لم يكن لدي أي قوة جسدية تقارن بهما لكن عندما صرخت عليهما بثقة بدا عليهما الخوف الشديد. أمرت (جسار) بعد حواري معه بأن ينصرف هو وأخته كي أفكر في هذا الموضوع فانصرفا دون نقاش.

مضت أيام وأنا في ذلك المكان ولم يكن يدخل علي سوى (جسار) بعد الاستئذان وكان يصاحبني يوميًا لسفح الجبل لحاجتي الملحة للخروج من ذلك الكهف واستنشاق بعض الهواء وكنت أطلب منه تركي وحدي بالرغم من ممانعته خوفًا على سلامتي لكني كنت أصر لرغبتي بالإحساس بالحرية التي سلبت مني مرة أخرى.

استيقظت في صباح أحد الأيام وأنا أنتظر (جسار) ليدخل علي كعادته ويأخذني لسفح الجبل فجلست أنتظره أفكر وحدي لفترة لم تتجاوز العشر الدقائق حتى سمعت صوتًا عند مدخل الكهف يقول:

«هل تأذن لي بالدخول يا سيدي؟»

لم يكن صوت (جسار) الذي طلب الإذن بالدخول فقلت له:

ادخل..

فدخل صاحب الصوت ورأيت وجهه وكانت صدمة جعلتني أقف على قدميّ فاتحًا فمي وعينيّ، فقد كان الواقف أمامي (عمار) وقبل أن أتفوه بكلمة قال لي:

«لا تخف لست صاحبك الذي غدرت به»

فسكت والعرق بدأ ينزل من جبيني ثم أكمل كلامه وقال وهو يبتسم:

«أنا هنا خادم لخادمك (جسار) فلم يعد لي مأوى بعد أن غدرت بصاحبي (عمار). أنا (رامع) القرين الشاهد عليك وعلى يدك التي وضعت ذلك الغصن تحت وسادة صاحبي»

ضاقت أنفاسي وبدأ قلبي بالخفقان وقلت له دون تفكير:

.. ماذا تريد؟

فقال: لا شيء.

فقلت له: لا تراوغ وتطِل معي في الحديث أفصح عن ما يدور في جوفك !

فنظر (رامع) للعرش الذي كان خلفي وقال:

أن أجلس على ذلك العرش..

فسكت مصدومًا وقلت له بهدوء:

وكيف تنوي تحقيق ذلك؟!

فقال: هذه أقل فدية يمكن أن تقدمها لي بعد قتلك للرجل الذي آواك في بيته ثلاث سنوات.

فصرخت فيه وقلت: (عمار) لم يؤوِني.. (عمار) خدعني واستغلني!!

فقال: دعنا لا نهتم أو نغُصْ في التفاصيل الآن خلاصة الموضوع أنك ساعدت في قتله و(جسار) و(جند) لا يعرفان ذلك وعندما سألاني عن تلك الليلة التي قتل فيها (عمار) وعن هوية من قتله أخبرتهما أني لا أعرف من قتله لأن (عمار) قد حررني وأرسلني تلك الليلة في مهمة وبالطبع هذا الكلام غير صحيح لأني كنت هناك ورأيتك وأنت تضع غصن الزيتون تحت وسادة (عمار) ورأيت السافل (دجن) وهو يدخل خلفك ليطيح برأس صاحبي.

كنت أسمع كلمات (رامع) وأقول في نفسي:

«كيف لم أنتبه لقرين (عمار) وأنا قد مررت بكل هذه الأحداث والأمور مع الشياطين والأقران.. وكيف لم ينتبه (دجن) لذلك؟»

لكن في لحظة من التفكير أيقنت أني هالك إذا لم أتعاون مع (رامع) أو على الأقل أجارِه حتى أجد حلًّا للتعامل معه. جلست على العرش الصخري البارد وقلت لـ(رامع) وأنا أحاول إخفاء توتري من كلامه:

و ما هو المطلوب مني الآن؟

قال (رامع): الآن بدأت تفكر بذكاء.. اسمع يا(خوف).. أليس هذا الاسم الذي سماك به صاحبي؟

فقلت له: بلى

فقال: لا أريد منك شيئًا سوى أن تكون تحت أمري وتنفذ كل ما آمرك به حتى أتخلص من (جسار) وأخته العاهرة وأحصل على عرشه وملكه.

فقلت له: وكيف تنوي القيام بذلك؟

فقال: لا عليك فالتفاصيل ليست من شأنك.. كل ما هو مطلوب منك أن تنفذ ما أطلبه منك في وقته وأي تردد منك أو عدم استجابة سوف أتوجه لـ(جسار) وأخته وأخبرهما بما فعلت أنت و(دجن). فسكت واختفى قرين (عمار). جلست على عرش (جسار) وأنا في ذهول

مما سمعت وبعد ساعة استأذن (جسار) بالدخول علي فأذنت له فدخل ومعه مجموعة من الشياطين الإناث وقال: هل تأذن يا سيدي ببقاء هؤلاء الحرس معك فسألته:

ولماذا كلهن إناث؟

فقال: لأنهن لسن للحراسة فقط بل لتسليتك في وحدتك.

فقلت له: لا أحتاج للتسلية يا(جسار) دعهن يقفن عند مدخل الكهف فقط.

فقال: سمعًا وطاعة..

أمر (جسار) الحراس بالخروج والوقوف أمام مدخل الكهف ثم اقترب مني وقال:

لدي أخبار مفرحة لك يا سيدي..

فقلت له: ما هي هذه الأخبار يا(جسار)؟

فقال: الجاسوس الذي أخبرتك عنه قال لي إن خمسة من العشرة المؤمنين سيكونون موجودين في مكان قريب من هنا وستكون فرصة سانحة لقتلهم لأنهم وحدهم وأغلب جيوشنا تتركز في هذه الجبال.

فقلت له: ولماذا أتوا إلى هنا دون حراسة؟

قال: أتوا في مهمة انتحارية في محاولة منهم لقتلك بعد ما علموا أني آويتك وحميتك.

فقلت له: وأين الخبر المفرح هنا يا(جسار)؟

فقال: ستكون فرصة رائعة للتخلص منهم لأنهم سيعتمدون على عنصر المفاجأة ظنًّا منهم أننا لا نعرف شيئًا عن خطتهم وسيكون ذلك هو سلاحنا ضدهم حيث إنني عازم على نصب فخ لهم في المكان الذي قرروا فيه الهجوم عليك.

فقلت له: وأين هذا المكان؟

قال: سفح الجبل الذي اعتدت على الذهاب له كل يوم عند الفجر كي تنسى جو الكهف ووحشته.

فقلت له: هل أنت متيقن من هذه المعلومات؟

فقال: نعم.. و يمكنك سماع ذلك من الجاسوس نفسه.

فصرخ (جسار) ليستدعي الجاسوس وقال:

«تعال أيها الجاسوس أمام سيدك!»

فدخل علينا (رامع) وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة مقززة وحكى أمامي ما قاله (جسار) وعرفت وقتها أن هناك خدعة وأن (رامع) قد يكون متعاونًا مع «العشرة المؤمنين» لتحقيق أغراضه الشخصية وأهمها التخلص من (جسار). عندما انتهى (رامع) من حديثه أمرته بالانصراف فنظر لي نظرة غريبة لاحظها (جسار) فلطمه على وجهه وقال:

لا تحدق بسيدك هكذا أيها العبد!!

فخرج (رامع) من المكان وقال (جسار):

هل تأمرني بقتله يا سيدي؟

وفي تلك اللحظة وجدت الخلاص من تهديد (رامع) يتجلى أمامي وبين يديّ وينتظر إشارة من إصبعي لكني لم أستطع أن أعطي أمرًا كهذا فما زالت إنسانيتي تنبض بداخلي بالرغم من الشياطين التي كانت وما زالت تحيط بي فقلت لـ(جسار):

كلا.. اتركه..

فصمت (جسار) بخيبة أمل وكأنه كان يريد مني إعطاء الأمر بقتل (رامع) ثم قال:

هل تأذن لي بالذهاب خلف الخمسة المرسلين لقتلك يا سيدي؟

فقلت له: متى تنوي الهجوم عليهم؟

قال: وصولهم سيكون عند اكتمال القمر.

وكان ذلك بعد أيام فقلت لـ(جسار):

دعني أفكر قليلًا وسأخبرك بقراري لاحقًا.

فقال: سمعًا وطاعة سيدي وقتما تشاء.

خرج (جسار) من الكهف مما أثار في نفسي تساؤلًا..

لماذا يخرج بعض الشياطين من الكهف مشيًا كالبشر في بعض الأوقات وفي أوقات أخرى يختفون كالدخان المتبخر.. ما الفرق بين الحالتين؟

لم تكن هذه المرة الأولى التي أستغرب فيها من بعض سلوكيات الشياطين وكنت أحاول في كل مرة ملاحظة ما أستطيع ملاحظته

واستنتاج الإجابة دون الحاجة للسؤال لكني أدركت في النهاية أن عالمهم مليء بالأسرار وقد لا أعرفها أبدًا.

قضيت تلك الليلة في الكهف بعد ما أعدت الحارسات اللاتي عينهن (جسار) لحراستي مكانًا لي كي أنام وبالرغم من محاولاتهن الشيطانية لمشاركتهن فراشي لم أستجب لهن وأمرتهن بالانصراف. في اليوم التالي استيقظت على صوت (جند) وهي تستأذن بالدخول فأذنت لها وعندما دخلت لاحظت أنها لم تنحنِ مثل كل من يدخل علي واقتربت مني بشكل مبالغ فيه حتى وصلت لأذني وهمست فيها وقالت:

ألم تشتَقْ لي سيدي المدون.. ؟

وضعت يدي على صدرها ودفعتها بهدوء وقلت:

لست بمدون لأحد الآن..

اقتربت مرة أخرى مني وقالت وهي تبتسم:

هل أفهم من ذلك أنك لم تشتقْ لي؟

في تلك اللحظة اتخذت قرارًا بأني لن أتعامل معها بلين خاصة بعد قتلها لـ(دجن) فدفعتها بقوة وأنا أصرخ:

لا تتعدي حدودك يا (جند)!!

فنزلت على ركبتها وقالت:

أعتذر يا سيدي اصفح عني..

طلبت من (جند) أن تنصرف إذا لم يكن لديها حديث مهم معي فقالت:

أريد أن أحدثك بشأن جاسوس (جسار)..

فسكت قليلًا ثم قلت لها:

أفصحي عن ما يدور في بالك يا (جند)

فحكت (جند) أنها لا تثق بـ(رامع) وأنه قرين لئيم ولا أمان له فهو وكما كان يقول لها (عمار) عندما كانت تعاشره:

قريني أخبث مني بكثير لذلك لا أحرره كثيرًا إلا للضرورة القصوى فقط.

فقلت لها: هل تملكين شيئًا ملموسًا عليه أم أنها مجرد شكوك؟

فقالت: عندما قتل (عمار) قال (رامع) لي أنا و(جسار) إنه كان محررًا ولم يشاهد القاتل وهذا يناقض كلام (عمار) الذي كان يخبرني أنه نادرًا ما يحرره.

فقلت لها وقد بدأت أتوتر من كلامها:

لعل (عمار) حرره تلك الليلة لغرض ما وكانت مجرد مصادفة.

فقالت: مستحيل.. (عمار) لا يحرر قرينه إلا لأمر هام والأمر الذي قال (رامع) إن (عمار) حرره من أجله كان تافهًا جدًّا.

فقلت: هل تشكين بأنه هو من قتل (عمار)

فقالت: لا أظن.. لا أعرف.. كل ما أنا متيقنة منه هو أنه لم يخبرنا بالحقيقة كاملة.

فقلت: وماذا تريدين مني الآن؟

قالت: لا شيء لكن خذ الحذر منه فهو أخبث مما يظهر و(جسار) يرفض الاستماع لي لكنه يسمع لكلامك.

فقلت لها: لا بأس يا (جند) سأفكر في كلامك.

فقالت: هل تأذن لي بالانصراف؟

فقلت لها: نعم

لكن عندما أدارت ظهرها للانصراف قلت لها:

توقفي يا (جند)!

فأدارت وجهها مبتسمة وقالت:

هل تأمرني بشيء آخر يا سيدي؟

قلت لها: احكي لي كيف قتلتِ (دجن)؟

فذهبت الابتسامة من على وجهها وقالت:

هل أنت واثق من طلبك يا سيدي؟

فقلت لها: تكلمي يا (جند) ولن أحاسبك على شيء هذا عهد مني.

فأنزلت رأسها وحكت لي ما حدث بالتفصيل.

حكاية قتل (جند) لـ(دجن)

كما روتها بنفسها

أخبرتني (جند) أنها بعد تحرير (جسار) لـ(دجن) ورفضه قتلها له لم تستطع نسيان رغبتها الملحة في الانتقام من قاتل أبيها ومحرر (جسار) الذي سرق أضواء الاهتمام منها خاصة بعد معرفتها أنه كان يتعاون مع (ملاس) فقررت البحث عنه بنفسها وأمضت شهورًا وهي تتقصى أثره بين القبائل وأماكن تجمع الشياطين رغبة منها في الانتقام لكنها لم تجد له أثرًا وأصبح معروفًا بين أفراد قبيلتها والقبائل الأخر تلك الرغبة. استأنفت (جند) حديثها وقالت:

«.. وبالرغم من أن (جسار) كان على علم بمحاولاتي المستميتة للأخذ بثأر أبي من (دجن) إلا أنه لم يحرك ساكنًا وكأنه واثق من أني لن أجده أو أستطيع الوصول إليه. وبعد عدة سنوات من الغزوات استعاد (جسار) مجد القبيلة وأصبحنا قبلة لكل شيطان يريد المأوى لذلك كانت عروض الانضمام لنا في ازدياد كل يوم. وخلال تلك الفترة دخل علينا (رامع) قرين (عمار) وكان مصابًا وطلب الحماية من (جسار) بحكم أن صاحبه

كان مدونًا سابقًا لقبيلتنا فوافق (جسار) على حمايته وضمه لصفوف العشيرة خاصة وأن في تلك الفترة كانت مجموعة «العشرة المؤمنين» في قمة نزاعها مع (جسار) وكان يريد أن يستفيد من شيطان قوي كقرين (عمار) ليقاتل في صفوف جيشه. مضت الأيام والشهور وبدأ (رامع) يتقرب من (جسار) بشكل ملحوظ واستطاع كسب وده لكنه لم يكسب ثقته وتمادى (رامع) في ثقته بنفسه وبدأ بالتقرب مني لكني نهرته بقوة وقلت له إنه لم يرتقِ لهذه الدرجة فقال:

اطلبي ما تشائين يا (جند) وسوف أحضره لكِ.

فقلت له باستهزاء:

أرشدني عن مكان (دجن) ولك ما شئت..

فقال: أنا على علم بمكانه لكن على ماذا سأحصل في المقابل؟

ففقدت عقلي وتركيزي عندما سمعت اسم (دجن) وأمسكت بـ(رامع) وصرخت في وجهه بأن يخبرني عن مكانه فقال:

لا أستطيع لأن هذا يخالف رغبة سيدي (جسار)..

فقلت له: رغبة سيدك (جسار) لن تنقذك عندما أفصل رأسك عن جسدك!

سكت ولم يتكلم فصرخت فيه بقوة:

أخبرني وإلا قطعت رأسك !!

فقال: لن أدلك عليه لكن سأدلك على المدينة التي يسكن فيها الآن وهذا أقصى ما أستطيع.

فقلت له: تكلم ولا تراوغ يا شيطان!!

فقال: (دجن) موجود في مكة..

فقلت: مستحيل !.. مكة لا يدخلها إلا مسلمون.

فقال: (دجن) أعلن إسلامه بعد ما حرره (جسار) من مخالبك وهو يعيش هناك بسلام منذ ذلك الوقت ويحاول أن يكفر عن ذنوبه في الماضي. غضبت وصرخت فيه وقلت له:

«سوف تساعدني في إخراجه من مكة يا (رامع) وسوف أقتله!»

فقال لي: كيف أساعدك.. حتى أنا لا أستطيع دخول مكة؟

فقلت له: اغرب عن وجهي إذًا لا نفع منك..

فقاطعتها في تلك اللحظة وقلت لها:

لماذا لم تتركي (دجن) وشأنه؟

فقالت: دم أبي ليس كدم (عمار) أو غيره..

فأشرت لها بيدي وقلت لها: أكملي..

قالت (جند) بعد ذلك إنها استأذنت من (جسار) للذهاب في خلوة (وهذا أمر طبيعي بين الشياطين فبعضهم قد يختلي بنفسه لسنين لو حصل على الإذن). أذن لها (جسار) وتوجهت لمكة المكرمة ومكثت عند أطرافها

لأنها لا تستطيع الدخول وبقيت تنتظر لشهور عدة عند أطراف مكة تتشكل من وقت لآخر للبشر القادمين للحج أو العمرة في محاولة منها للبحث عن من يساعدها لإخراج (دجن) من المدينة لكن أكثر المتوجهين لمكة كانوا مؤمنين ويتجنبونها عندما يسمعون كلامها.

قررت (جند) بعد أن طال انتظارها الذهاب شمالًا للبحث عن ساحر من الإنس ليساعدها وانتهى بها المطاف في بلد النهرين حيث سألت الشياطين هناك وأرشدوها عن ساحر معروف في تلك المنطقة فذهبت إليه وتشكلت أمامه ولأنها أصبحت الآن من الأسياد لم يستطع الساحر منعها من الدخول عليه وإجباره على سماعها. فأخبرته أنها تريد منه الذهاب لمكة وتقييد قرين مؤمن فقال لها الساحر:

«مستحيل أنا لا أملك القدرة على ذلك فالقرين المؤمن هو من أشد الأنواع قوة والسيطرة عليه تستلزم طلاسم نادرة لا أملكها»

فقالت له: خذ هذا الكتاب واقرأ طلاسمه وسيحضر هذا القرين المؤمن أمامك مقيدًا عندها اقرأ الطلسم الثاني وسيكون خارج مكة أمامي وعندها سينتهي دورك.

فقاطعتها مرة أخرى وقلت لها: ولماذا لم تستخدمي هذا الطلسم لإحضار (ملاس) في السابق أو إحضار أفراد «العشرة المؤمنين» الآن؟

فقالت: هذا الطلسم لا ينفع مع الأقران الذين يحيطون أنفسهم بحراسة و(دجن) كان وحيدًا في مكة.

فقلت لها: وهل وافق الساحر على هذا الكلام؟

فضحكت وقالت: حياته أغلى من حياة (دجن) ولا يوجد ساحر بضمير!

فقلت لها: لماذا لا تنطقين الطلسم بنفسك؟

فقالت: بعض الطلاسم لا ينطقها إلا البشر..

فقلت لها: أكملي..

قالت: نفذ الساحر ما طلبته منه بعد ما نقلته لمدخل مكة فهو كما قال لا يستطيع السفر إليها وبعد دقائق من دخوله مكة كان (دجن) خارج حدودها مقيدًا أمامي. نظرت إليه وهو ممدد على الأرض مقيد عند قدمي. كنت أريده أن يتوسل لحياته.. كنت أريده أن يقبل أقدامي كي أحرره.. لكنه لم يفعل بل كان مبتسمًا كالأحمق فضربت عنقه وفصلته عن رأسه وعدت لقبيلتي بعد أن أخذت بثأر أبي.

قلت لها بعد ما انتهت من الحديث:

وماذا حل بالساحر الذي ساعدك؟

قالت وهي تبتسم:.. قتلته بالطبع..

أخذت نفسًا عميقًا ثم أشرت لها بيدي بالانصراف.. فانصرفت.

جلست بعدها أفكر في هذا العالم البشع. عالم الخداع والقتل. عالم الغدر وانعدام الأمان. لم يكن عالمًا أنتمي إليه وكان لا بد أن أجد مخرجًا منه وإلى الأبد.

البحث عن النور في جبال أطلس

أمضيت أيامًا أفكر في مخرج من هذا المأزق الذي كنت فيه فوجدت أن حياتي يمكن أن تسلب مني في أي لحظة من قبل أي أحد فالـ«عشرة المؤمنون» يريدون قتلي و(رامع) يبتزني وقد يتخلص مني في أي وقت بعد وصوله للعرش و(جند) و(جسار) لو علما بحقيقة ما حدث لـ(عمار) فسيقتلانني حتى دون أن يعطياني فرصة للدفاع عن نفسي ولا يوجد أمان بين هؤلاء الشياطين أبدًا وولاؤهم متقلب دائمًا فقررت أن أفكر في نفسي فقط وأن أستخدم عقلي وأعطل عاطفتي وحواسي كلها. توصلت بعد تفكير طويل لفكرة كانت فيها مخاطرة لكنها في ذلك الوقت كانت الحل الوحيد للحفاظ على حياتي. استدعيت (جسار) عن طريق الحراس وطلبت منه أن يأتي وحده ففعل وأتى أمامي وقال:

هل اتخذت قرارك يا سيدي بشأن هجومنا على الخمسة القادمين لقتلك من أفراد «العشرة المؤمنين»؟

فقلت له: نعم.. ولكن هناك تغيير في الخطة

فقال: تغيير.. ما نوع هذا التغيير؟

قلت له: سوف نرسل (رامع) لهم ليخبرهم أني سأكون وحدي عند سفح الجبل كعادتي كل صباح.

فقاطعني (جسار) وقال: كي نعد لهم فخًا ونهجم عليهم.. أليس كذلك يا سيدي؟

فقلت له: لا

فقال: ماذا تنوي إذًا أن تفعل يا سيدي؟

فقلت له: اسمع يا(جسار)..

فحكيت له ما كنت أريده أن يسمع فقط وبعدها قال:

كما تشاء يا سيدي.

ذهب (جسار) وأعطى الأمر لـ(رامع) أن يخبر الخمسة القادمين أني سأكون على سفح جبل من جبال الأطلس غير الذي اعتدت الذهاب إليه كل صباح وأني سأكون لقمة سائغة لهم فذهب (رامع) وأخبرهم بذلك. توجهت بعدها لسفح الجبل المتفق عليه. وصلت هناك وجلست أنتظر وصول الأقران الذين تكلم عنهم (رامع) وبعد دقائق خرج خمسة من «العشرة المؤمنين» وحاصروني من كل اتجاه وأنا جالسٌ على الأرض أشاهدهم وهم يحاصرونني بكل ثقة. بعدها تحدث أحدهم وقال:

«اليوم نقتص ممن باع العهد وغدر بشهيد الأقران»

فوقفت ونفضت التراب عن ثوبي بكل هدوء وقلت لهم:

لا أملك وقتًا كافيًا لكم لذلك سأختصر في كلامي قدر الإمكان فأنتم محاطون بمئة ألف شيطان وعلى رأسهم (جسار) و(جند) وإذا حاول أحدكم مس شعرة من رأسي فستموتون جميعًا في لمح البصر. فرد أحدهم بصوت مرتفع وقال:

«نموت بكرامة ولا نعيش بذلة»

فقلت له:

ما رأيك أن تعيش بكرامة؟.. أليس هذا خيارًا أفضل؟

فسكت من كان يحدثني وتغيرت ملامح وجهه من الغضب إلى الاستغراب فتدارك قرين آخر الكلام وقال بصوت مرتفع:

«لن تخدعنا أيها الشيطان بكلامك»

فصرخت في وجهه وقلت:

اخرس أيها القرين الأحمق.. لا يعني أنك سميت نفسك مؤمنًا أن هذا صحيحٌ !!

فصرخ في وجهي ثالث وبدأ جدال بيني وبينهم حاولت فيه التشكيك في مسعاهم الذي كان من الأساس غير سديد فقد أمرت (جند) قبل قدومي لسفح الجبل بجمع بعض المعلومات عن الخمسة القادمين لقتلي بعد ما زودنا (رامع) بأسمائهم فاكتشفنا أنهم كانوا من الشياطين الفاسقين

وأصحابهم كلهم فسقة ولا أثر للإيمان في تاريخهم. بعد جدال طويل مع الأقران الخمسة تمكنت من زعزعة ثقتهم في أنفسهم وانخفضت حدة كلامهم معي وبدؤوا بالحديث معي بنبرة منخفضة حتى سيطرت على محور الحديث بالكامل. توصلت معهم في النهاية لاتفاق بأني لن أفضح سرهم لقائدهم الذي كان اسمه (دشار) ولن آمر جيش الشياطين الذي يحاصرهم بقتلهم إذا قطعوا عهد الولاء لي وهو عهد قرأته في كتاب (عمار) الذي استخدمته لربط (جسار) فقد كان في الكتاب نص إذا قاله نفر من الجن أو الشياطين لإنس يصبح خادمًا وعبدًا عنده حتى يعتقه.. فقال أحدهم:

«هل تريد منا أن نكون جزءًا من جيشك الشيطاني؟»

فقلت له: لا.. لا نفع لكم هنا أريدكم بين أصحابكم لكن أريد ولاءكم لي قبل ذلك.

فقال آخر: ولو لم نعاهدك؟

قلت له: ستطير رؤوسكم بإشارة مني وسنرى إذا كنتم ستصبحون شهداء أم مجرد منافقين.

فصمتوا جميعًا ثم قالوا بصوت واحد:

«بماذا تأمرنا يا سيدي»

فأدركت وقتها أن نظرية الخوف التي كنت مؤمنًا بها وألاحظها

وأطبقها دائمًا على البشر قد نجحت مع هؤلاء الشياطين فطلبت منهم ترديد نص العهد وفعلوا ذلك على مضض لكن بعد قراءته تغيرت نظراتهم وأصبحوا من أتباعي. وجهتهم بعد ما انتهوا من تلاوة العهد بأن لا يعرف أحد عن ما دار بيننا ولا حتى (جسار) وأتباعه ثم زودتهم باسمين آخرين من المؤمنين العشرة كنت على يقين من فسقهما ونفاقهما حسب المعلومات التي زودتني بها (جند) وطلبت منهم إحضارهما لنفس المكان غدًا وهما مقيدان كي أجندهما. فسألني أحدهم عن الثلاثة الباقين بمن فيهم قائدهم (دشار) فقلت لهم لم نرَ في ماضيهم أو ماضي أصحابهم ما يوحي بنفاقهم. رحل الخمسة من أمامي بعد ما أخبرتهم أن يعودوا ويخبروا قائدهم أنهم حضروا ولم يجدوني. سرت بعد ما رحل الأقران الخمسة لمسافة قصيرة حتى وصلت للمكان الذي أمرت (جند) أن تنتظرني فيه وحدها حتى تعيدني للكهف حيث إني لم أحضر (جسار) أو جيشه معي فقد خاطرت بحياتي ونجحت المخاطرة. عندما وصلت للكهف استأذن (جسار) و(جند) للدخول علي فأذنت لهما ودخلا وكان على وجه (جسار) سؤال كنت أعرف مضمونه.

قال (جسار): ما الذي حدث يا سيدي؟

قلت له: لم يحدث شيء فلم يأتِ أحد.

فقال (جسار) مستغربًا: لكن (رامع) قال..

فصرخت في (جسار) وقلت له:

تثبت يا(جسار) مرة أخرى من أخبارك ومعلوماتك قبل أن تزعجني بهذا الشكل !!

غضب (جسار) جدًّا وأخذ يشتم في (رامع) ثم استأذن بالخروج فأذنت له وخرج وبقيت (جند) معي وقالت وهي تنظر لي بخبث:

(جسار) سوف يقتل (رامع)..

فقلت لها: لا أعتقد

فقالت: أنت لا تعرف (جسار)..

فقلت لها: ما سيفعله مسؤوليته وليس مسؤوليتي.

وفعلًا بعد أقل من ساعة استأذن (جسار) بالدخول علي بعد ما رحلت (جند) فأذنت له بالدخول فدخل وعليه آثار عراك وفي يده رأس (رامع) وقال:

اقتصصت لك من الخائن يا سيدي !

فقلت له بهدوء: ومن أمرك بذلك يا(جسار)؟

فقال بعد ما نزل على ركبته وخفض عينيه للأرض:

فعلتها لأجلك يا سيدي لأنه كذب علينا وأوهمنا بخطر لم يكن له وجود.

فقلت له: هذا كان قرارك فلا تلصقه بي يا(جسار)..

فقال: حاضر يا سيدي.

انصرف (جسار) بعد ما أذنت له وأحسست براحة لزوال مشكلة (رامع) لكن ما زالت مشكلة (دشار) ومن معه قائمة وتنتظر أن تحل.

توجهت في الصباح التالي مع (جند) لنفس المكان وأمرتها بالانتظار بعيدًا كما حدث بالأمس وتوجهت لسفح الجبل لأجد الخمسة قد أحضروا الاثنين وهما مقيدان ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لإقناعهما بتلاوة عهد الولاء لي فقد أدركا أن نفاقهما قد كشف. أصبحت الآن أتحكم بسبعة من «العشرة المؤمنين» ولم يكن ذلك ما تحكمت به فقط فهم قادة في تنظيمهم وكل واحد منهم يتحكم بمئة قرين تحت إمرته وبالتالي كنت أتحكم بسبع مائة من جيشهم المكون من ألف قرين مؤمن. أعطيتهم أمرًا بالانصراف وعاهدوني على السمع والطاعة والدفاع عني في أي وقت. عدت لـ(جند) بعد ما انصرف الأقران السبعة لكنها هذه المرة سألتني بعد ما طلبت الإذن بالسؤال وقالت:

لماذا عدنا لنفس المكان مرة أخرى؟

فقلت لها: هل تعاهدينني على السمع والطاعة يا(جند)؟

فقالت: أنا خادمة عندك يا سيدي..

فقلت لها: لا يا (جند).. (جسار) مربوط بعهد لا يستطيع الخلاص منه لكن أنتِ لستِ مرتبطة بشيء معي ومحاولتك إيهامي بأنك خادمة لي لن تنطلي علي لأن جيش (جسار) يتبعه فبالتالي يتبعني لكن أنتِ أخت

(لجسار) وسيدة في قبيلتك لذلك لستِ ملزمة بطاعتي دون عهد. سكتت (جند) بعد هذا الكلام وبدا على وجهها علامات القلق لانكشاف أمرها وفي الوقت نفسه أحسست أني استعجلت في هذه المواجهة لأني كنت وحدي معها في ذلك المكان المنعزل والبعيد عن الكهف وكانت تستطيع قتلي بسهولة ولن يعرف أحد بذلك. عندما أدركت الخطر الذي وضعت نفسي فيه تداركت الأمر بسرعة وقلت لها:

أنا أعرف لماذا يا(جند) تبقين بجانبي وتخدمينني.

فقالت: لماذا؟

قلت لها: لأنك تحملين مشاعر نحوي ومنجذبة لي دون قيد أو شرط.

فابتسمت وقالت: أنت أخبث من أي شيطان أيها المدون..

فبادلتها الابتسام وفتحت ذراعي في دعوة مني لعناقها على أمل أن يميل قلبها وتنسى سؤالها. و بالفعل هذا ما حدث وبعدها عدنا للكهف وطلبت منها أن لا تخبر (جسار) بما حدث بيننا فابتسمت وقالت:

لن أفعل أيها المدون..

ثم خرجت مبتسمة دون أن تستأذن..

بعد عهد الولاء الذي قدمه لي الأقران السبعة سيطرت على أغلب البيادق لكن وجود (جند) دون عهد ولاء كان يشكل خطرًا علي وكذلك (دشار) والاثنان اللذان ما زالا مواليين له كان الخطر الثاني الذي يجب

أن أفكر فيه لذلك كان لزامًا علي أن أفكر في خطة جديدة للتخلص منهم دفعة واحدة.

كان قرار الرحيل عن جبال الأطلس والتوجه لمكان آخر هو الخيار الأمثل لي في ذلك الوقت فخطر «العشرة المؤمنين» قد خف بعد موالاة سبعة منهم لي لذلك استدعيت (جسار) وقلت له:

أريد منك يا (جسار) أن تأخذني إلى مكان آخر فقد سئمت هذا المكان خاصة وأنه لم يعد مكانًا آمنًا مع وجود «العشرة المؤمنين».

فقال: ولكن يا سيدي هذا أكثر مكانٍ آمنٍ لك..

فقلت له: تصرف.. لن أبقى هنا بعد اليوم!

فقال: أمهلني إشراقة وغروبًا يا سيدي

فقلت له: لك ذلك ولكن لا تزد عليهما.

فقال: أمرك

رحل (جسار) وبقيت وحدي أنتظر انقضاء المدة التي طلبها (جسار) وخلال انتظاري دخلت (جند) علي في المساء ومرة أخرى لم تستأذن فأدركت أن ما حدث عند سفح الجبل قد هدم بعض الحواجز بيننا ولم يكن هذا الشيء في مصلحتي أبدًا. تقدمت (جند) نحوي وعندما اقتربت رفعت يدي في وجهها وقلت:

إلى أين يا(جند)؟

فقالت بصوت رخيم: ماذا بك أيها المدون؟

فصرخت في وجهها وقلت:خاطبيني بلقبي الذي أستحق!!

فصرخت وقالت: حسنًا يا سيد السبعة!!

فسكت مصدومًا وقلت: أي سبعة؟!

فقالت بتهكم: لا تراوغ لقد رأيتك وأنت تجند خمسة من الأقران المؤمنين وبعدها اثنين آخرين في اليوم الذي تلاه

فقلت لها: لكني أمرتك بالبقاء في مكانك !

فضحكت وقالت: كما قلت أنت أنا لست عبدة عندك مثل (جسار) كي تأمرني أنا حرة في ما أفعل!!

كان جليًا أني في تلك اللحظة قد وقعت وتيقنت أن نهايتي اقتربت وستكون على يد قاتل (دجن). توقفت عن الكلام وبدأت أتشهد لأني اقتنعت وقتها أني هالك فقد أوهمتها بحبي وهذا شيء لا يغتفر عند الشياطين الإناث وخاصة الأسياد منهن. أغمضت عينيّ في انتظار الإحساس بانفصال رأسي عن جسدي. لم ينفصل رأسي عن جسدي ولم تنتهِ حياتي ذلك اليوم لكني سمعت صوت (جند) وهي تقول:

«لا تخف أيها المدون لن أقتلك الآن..»

فتحت عينيّ لأجدها وقد جلست على عرش (جسار) الحجري تتفحصه بأناملها الطويلة وتنظر له بشغف وتقول:

هذا العرش أهم منك ومن قتلك الآن..

فقلت لها: حتى أنتِ تريدين هذا العرش؟

فصرخت في وجهي وقالت: ومن لا يريد هذا العرش؟!

فقلت لها: أنا لا أريده.

فقالت وهي تبتسم بسخرية: ومن أنت لتحلم بمثل هذا العرش؟!.. لقد أخذت أكثر من حجمك فأنت مجرد سافل علوي حكم العالم السفلي وآن الأوان كي تعرف مقامك!!

فقلت لها: ماذا تريدين مني يا(جند) الآن؟

قالت: (جسار) لن يسمح لأحد بأن يقتلك ولو قتلتك فسأكون أول من يشك به وأنا في غنى عن هذا الأمر.

فقلت لها ساخرًا: هل تريدين مني أن أقتل نفسي؟

فقالت: لا.. أريدك أن تحرر (جسار) من عبوديته لك وهذا كفيل بتعريض حياتك للخطر دون تدخلي المباشر.

فقلت لها: ولماذا تفعلين ذلك؟

فقالت: (جسار) يبقى أخي مهما فعل لكن أنت مجرد إنسي دخيل علينا.

فقلت لها: وإن لم أفعل يا(جند)؟

قالت: لا تختبرني أيها المدون فطرق قتلك كثيرة لكنني أريد أن أحرر أخي قبلها.

صمت قليلًا وفكرت ثم قلت لها:

لن أحرر (جسار) يا(جند) وافعلي ما تشائين وتذكري أنك لو قتلتِني فـ(جسار) قد يقتص منك ولو لم يفعل فهناك سبعة أقران مؤمنين قطعوا عهد الولاء والحماية لي وأنتِ رأيتِ ذلك بنفسك وقد يجعلون حياتك جحيمًا.

فهاجت (جند) وهجمت علي وغرست مخالبها في صدري وصرخت في وجهي وقالت:

لا تعبث معي أيها السافل الوضيع.. حرر أخي الآن!!

فقلت لها: اقتليني وسيتحرر.

فرمت بي على الأرض بقوة وقالت:

سأمهلك حتى الصباح لتفكر وعندما أعود سوف تحرر أخي أو أحرر روحك من جسدك !!

قالت (جند) هذه الكلمات ورحلت..

ورقة التوت التي سقطت
في منتصف المثلث

أمضيت وقتًا ليس بالقليل على أرضية الكهف أحدق بسقفه المتشقق والجروح على أكتافي من أثر مخالب (جند) تنزف وعند الغروب دخل علي (جسار) بعدما استأذن وقال:

«لقد رتبت لك مكانًا آمنًا يا سيدي»

فقلت له وأنا أحاول أن أقف وأخفي الجروح التي تسببت بها (جند) على صدري وأكتافي:

أين هذا المكان يا(جسار)؟

فقال: في مثلث الشياطين في عرض البحر.

فقلت له: لكن هذا المكان خطر جدًّا يا (جسار)

فقال: لا تقلق يا سيدي لقد رتبت لك إقامة على جزيرة لن يصل إليها لا إنس ولا جن.

فقلت له: وماذا عن الشياطين؟

فقال: وحتى أعتى الشياطين

فقلت له: خذني إلى هناك حالًا يا (جسار) فلم أعد أطيق البقاء هنا مدة أطول لكن قبل أن تأخذني إلى هناك لا أريد لأحد أن يعرف بمكاني وخاصة (جند) هل فهمت يا(جسار)؟

فقال: جند؟!.. و لماذا يا سيدي؟

فقلت له: نفذ دون نقاش يا(جسار) !

فقال: أمرك!

نقلني (جسار) إلى مثلث الشيطان ونزل بي على جزيرة كبيرة وكان الوقت ليلًا والقمر مكتملًا والبحر هائجًا جدًّا.

أخبرني (جسار) قبل رحيله أن المكان آمن لكن يجب علي أن لا أترك الساحل ولا أدخل لوسط الجزيرة وسوف يرسل لي ما يكفيني من مأكل ومشرب كل يوم فأشرت له بالرحيل فرحل. كنت متعبًا من مواجهتي مع (جند) والرحلة إلى الجزيرة لذلك غلبني النوم بسرعة ونمت على الشاطئ حتى الصباح. مضت الأيام وأنا على تلك الجزيرة لا أدخل وسطها كما حذرني (جسار) وكان يصلني يوميًّا مائدةٌ من الطعام عند فجر كل يوم مع الرسول (يقلب). مر على وجودي في تلك الجزيرة مدة تجاوزت الشهر وفي فجر أحد الأيام جاءني (يقلب) على عادته ومعه مائدة الطعام وقبل أن يهم بالرحيل سألته عن أحوال القبيلة فقال:

الحال مستقر و«العشرة المؤمنون» أصبحت هجماتهم أقل من السابق

وهناك بعض المدونات التي تذكر أن خلافًا دب بين القادة العشرة وسيدي (جسار) سعيد بذلك، قلت له:

وماذا عن (جند)؟

قال: كما هي يا سيدي لم يطرأ عليها جديد.. هل تأذن لي بالانصراف؟

فأذنت له بالرحيل فرحل..

بعد مرور أسبوع من حواري مع (يقلب) بدأ الملل يغزو عقلي ويشتت فكري فقررت أن أتحدث مع (يقلب) في زيارته القادمة وآمره بإخبار (جسار) بأني أريد رؤيته لأني كنت أريد منه أن ينقلني لمكان أفضل. انتظرت (يقلب) في موعده المعتاد والذي كان مع شروق الشمس لكنه لم يأتِ. مضى يوم وآخر ولم يظهر (يقلب). بدأ الجوع ينهش في جسدي والعطش قد وصل لأقصى ما يمكن أن أتحمل ولم يكن حولي إلا المياه المالحة فخارت قواي على الأرض وغططت في نوم عميق. استيقظت على صوت يوقظني في المساء. ففتحت عينيّ لأجد (يقلب) واقعًا أمامي وجسده مغطى بالجروح النازفة وكان يبحث عن النفس فحاولت إيقاظه لكنه لم يقل إلا بعض الكلمات قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.. قال:

«سيدي (جسار) مات و(جند) سلبت منه العرش»

حاولت إيقاظه لكنه فارق الحياة واختفى جثمانه من أمامي. كنت مرهقًا من شدة الجوع والعطش لم أكن أستطيع استيعاب كلامه وكنت أظن نفسي في حلم فمشيت وأنا أترنح نحو وسط الجزيرة كمحاولة

أخيرة للبحث عن الطعام متجاهلًا تحذير (جسار) لأني كنت على وشك الموت على أي حال. دخلت بين أشجار الجزيرة وبدأت أمشي دون وجهة محددة حتى وقعت على الأرض من الإرهاق وغططت في نوم عميق مرة أخرى. لا أعرف كم أمضيت غائبًا عن الوعي لكنني استيقظت على صوت الرعد وانهمار المطر الغزير علي. بدأت بشرب الماء المتجمع في زوايا أوراق الأشجار الكبيرة التي امتلأت بها تلك الغابة حتى ارتويت.

توقف المطر بعد استيقاظي بفترة بسيطة واستعدت بعض عافيتي بعد شرب الماء المتعكر بالوحل والرمال. تجولت في تلك الغابة على أمل أن أجد شيئًا صالحًا للأكل، مشيت مسافة طويلة حتى بدأت الأشجار بالتناقص تدريجيًّا إلى أن وصلت لمنطقة خضراء خالية من الأشجار يتوسطها ما يشبه البيت المصنوع من الحجارة.

توجهت لذلك المنزل ببطء لأني كنت ما زلت مرهقًا من أثر الجوع والمشي، عندما وصلت للمنزل الحجري لم أرَ له نافذة أو بابًا كان أشبه بالحفرة أو البئر المغطى بالحجارة وكانت الحفرة عبارة عن مجموعة من الحجارة المصفوفة والتي تقود لأسفل الأرض مثل السرداب. ترددت في النزول لكنني في لحظة يأس نزلت واستمررت بالنزول لما كان يقدر بثلاثة طوابق نزولًا، كان الظلام يزداد حلكة كلما نزلت حتى وصلت إلى نهايته ولم أستطع رؤية شيء فقررت العودة والصعود للأعلى. عندها سمعت

صوتًا يأتي من خلفي يقول بهدوء:

«إلى أين يا ابن آدم؟»

فتوقفت مكاني ولم ألتفت خلفي فقال لي الصوت:

اجلس أريد التحدث معك..

فجلست على عتبة السلم الحجرية الباردة واحتضنت نفسي من الرعب وسكت، فقال الصوت:

«لا تخف يا ابن آدم لا أريد سوى بعض وقتك فأنا أراقب حياتك منذ فترة وقد آن الأوان أن نلتقي ونتحدث..»

فسكت ولم أرد عليه وكنت أنظر بتمعن في العتمة التي كان الصوت قادمًا منها لكنني لم أستطع رؤية شيء.. استمر صاحب الصوت بالكلام وقال:

«أبنائي لن يتركوك وشأنك لذلك لِمَ لا تنضم إلينا وتنتهي من هذه المعاناة؟»

سكت ولم أرد عليه.. استطرد في الكلام وقال:

«صدقني أن الموضوع سهل ولا يتطلب منك الكثير فأنا يمكنني أن أمنحك القوة والسلطة والحصانة وأعطيك من العلم والحكمة ما يجعلك تسود وتخلد. ما أعرضه عليك هو شيء سعى لنيله الكثير ولم يحظَ به إلا القليل وأنا اخترتك كي تكون من تلك الفئة المختارة..»

فتكلمت لأول مرة وكنت ما زلت أحتضن نفسي من الخوف والبرد الذي حل بالمكان فجأة وقلت:

ومن أنت لتمنحني كل ذلك؟

فقال:.. أنا الوجه الآخر للعملة..

فقلت له: أي عملة؟

فقال: العملة التي تم قذفها في الهواء يوم ولادتك وسوف تحط على الأرض يوم مماتك.

قلت: وما هو المقابل؟

فضحك صاحب الصوت وقال:

لا يوجد مقابل يا ابن آدم.. !

قلت له: لا شيء يأتي دون مقابل.

فقال: معك حق..

فسكت الصوت فترة ثم قال:

ما هو في رأيك المقابل المناسب لكل ما عرضته عليك؟

فقلت له: لا أعرف..

فقال: ماذا تملك؟

فقلت له: لا أملك شيئًا يستحق المقايضة.

فقال: على العكس تمامًا.. أنت تملك أشياء كثيرة لكنك لا تملك العين لترى هذه الأشياء.

فقلت له وأنا أرتجف من البرد الذي بدأ بالازدياد:

وما الذي تريد مني أن أعطيك إياه؟

فقال: وعد..

فقلت له: وعد بماذا؟

قال: وعد بأن تبقى كما أنت وألا تتغير.

قلت له: لم أفهم قصدك..

فقال: ليس من الضروري أن تفهم يا ابن آدم لكن اقطع هذا الوعد وسوف ينتهي هذا الكابوس.

فقلت له: لماذا تتحدث في الظلام لماذا لا تخرج لأراك وأتحدث معك؟

فقال: اليوم ليس يوم خروجي يا ابن آدم وقد لا ترى ذلك اليوم وقد تراه.

لم أفهم كلامه فسكت.. ثم قال لي:

«حياتي مكرسة لكم وأنا على عهدي ما استطعت».

فقلت له: لماذا لا تقتلني وتنتهي من المشكلة؟

فقال: هدفي ليس قتلكم بل إرشادكم للطريق لقتل أنفسكم.

فقلت له: لماذا تتحدث بصيغة الجمع.. عن من تتحدث بالضبط؟

فضحك وقال: عنكم جميعًا..

لم أفهم كلامه وعاودت السكوت..

اشتد البرد في المكان لدرجة لم أستطع فيها التنفس بسهولة لكن خوفي جعلني أتسمر مكاني وبعد قليل عاد الصوت وحدثني وقال:

هل تعرف ما هو الجحيم؟

فقلت له: هل تقصد جهنم؟

فقال: لا.. أقصد الجحيم على الأرض

فقلت له: لا.. لا أعرف

فقال: أن تكون مقيدًا بقوانين وضوابط تمنعك من الانطلاق بحرية.

فقلت له: لا وجود للحرية المطلقة وإن وجدت فهي مفهوم آخر للفوضى.

فقال: ما المتعة في ربط نفسك بعقيدة أو مبدأ لماذا لا تستمتع بحياتك قبل أن تذهب من هذه الدنيا؟

فقلت له: ولماذا أنت مهتم لهذه الدرجة؟ قد تكون متعتي في التمسك بمبادئي وقيمي وعقيدتي.. إصرارك على تغيير ذلك يثير الريبة.

فقال: أنا لست مهتمًا بتغييرك.. أنا أريد تطويرك والارتقاء بك فوق إمكانياتك البشرية المحدودة. لم يندم أحد على قبول عرضي من قبل.

فقلت له: هل تؤمن بحرية الاختيار؟

فقال: نعم وهذا ما أحاول منحه لك.

فقلت له: أنا أختار ألا أقبل عرضك.. هل تستطيع احترام ذلك؟

سكت الصوت الذي كان يحادثني قليلًا ثم قال:

ستختار العبودية إذًا وتبقى أسيرًا لمعتقدك؟

فقلت له: كلنا عبيد ولا يوجد أحرار لكن بعضنا اختار أن يكون عبدًا لشهواته ورغباته والبعض الآخر اختار أن يكون عبدًا لله وحده.

سمعت صوتًا أشبه بالزمجرة الخفيفة ثم عاود الصوت الحديث وقال:

أنا لست عبدًا لأحد !

فقلت: فعلًا فأنت أسير.

فقال: أسير؟!

فقلت: نعم.. أسير في مكانك.. أسير لأهدافك ومعتقداتك.. أسير لمن شغلوا بالك.. أنت لا تملك الحرية لتعود لسابق عهدك لذلك تندفع نحو الهاوية التي حفرتها لنفسك وتريد أن تأخذ معك كل من في طريقك.

فقال: عن من تتحدث؟!

فقلت له: عنكم جميعًا..

فقال: هل تعرف من أنا كي تتحدث عني؟!

فقلت: حديثي موجه لفكرك واعتقادك بغض النظر عن شخصك وهيئتك وهويتك.

فقال: عد من حيث أتيت يا ابن آدم..

فقلت له: كيف أعود؟

قال: اصعد للأعلى واخرج الآن وسترى شجرة فيها ثمار لو أكلت منها فسينتهي كابوسك وستحصل على كل ما وعدتك به ولو لم تأكل منها فستعود لعالمك خاوي اليدين لكنك في كلتا الحالتين ستعود.

قلت له وقد هممت بالوقوف وأذرعي تحتضن صدري من البرد:

هل لي بسؤال؟

فقال: اسأل.. ؟

فقلت: ما هو اسمك؟

قال: أسمائي كثيرة..

فقلت: اختر واحدًا منها وأخبرني.

فقال: «نودابا»..

خرجت من ذلك المكان ووجدت الشجرة أمامي وعليها الثمار كما أخبرني صاحب الصوت وكانت رغبتي كبيرة للأكل منها لسد جوعي لا للحصول على ما وعده لذلك لم أرحل في الحال وجلست تحتها أفكر هل آكل منها وأسد جوعي أم أتركها وأعود للشاطئ البعيد؟

وبعد تفكير قصير وقبل أن تخور قواي قررت تجاهل الشجرة والعودة للشاطئ دون أن آكل تلك الثمار. كانت رحلة العودة للشاطئ شاقة

وسقطت خلالها أكثر من مرة وبعد مدة ليست بالقصيرة وصلت للشاطئ وأنا في حالة يرثى لها وارتميت على الرمال وغططت في سبات كنت أظنه الأخير. فتحت عينيّ عندما اشتدت الشمس عليهما ولم أكن أملك القوة على الحراك لكني رأيت على ذلك الشاطئ الذي لم يكن يبعد عني سوى أمتار قليلة رجلًا ذا لباس أنيق يلعب ويجري مع بعض الأطفال وعندما رأى الرجل أني استيقظت ضرب راحتي يديه في بعضهما بعضًا وضحك وقال للأطفال الذين معه:

«لقد استيقظ أخيرًا !»

جرى الأطفال نحوي وهم يضحكون لكنهم عندما اقتربوا مني أصبت بالرعب والفزع من أشكالهم لكني لم أقوَ على النهوض للهرب. كان الأطفال بلا أعين أو أنوف كان منظرهم بشعًا جدًّا. وضع الأطفال أياديهم الصغيرة على أجزاء متفرقة من جسدي وبدؤوا بهزه وهم يضحكون ولم يفرقهم ويبعدهم عني إلا ذلك الرجل الأنيق حين قال:

«انتهى وقت اللعب يا أولاد عودوا للداخل»

رحل الأطفال كما أمرهم الرجل الأنيق ولم أستطع أن أرى أين ذهبوا لشدة إرهاقي وتعبي. لم أسمع سوى خطواتهم وضحكاتهم وهي تسير مبتعدة عني وعن الشاطئ باتجاه وسط الجزيرة. جلس الرجل الأنيق بجانبي وفتح شيئًا أشبه بالقنينة الصغيرة وسكب محتواها في فمي وخلال لحظات استعدت عافيتي واستطعت بعدها بقليل النهوض والجلوس

بجانبه. جلست ساكتًا أنتظر حديث هذا الرجل الأنيق لكنه لم يتكلم واكتفى بالنظر للأمواج المتضاربة وسماع صوتها القوي الذي لم يزاحمه إلا أصوات طيور الجزيرة. خرج الرجل عن صمته بعد ربع ساعة تقريبًا وقال:

«مهما فعلنا فإننا لن نتفق.. لذلك تجدنا في صراع دائم.. كانت مهمتي في السابق شاقة لكن اليوم كثير منكم ينوب عني للقيام بها..»

سكت قليلًا ثم تبسم وقال:

بعضكم كاد يتفوق علي لدرجة أني خفت على منصبي!

أكمل الرجل حديثه بعد ما التفت إليّ وقال:

«لقد اجتزت الاختبار بنجاح.. وحان وقت رحيلك»

فقلت له: عن أي اختبار تتحدث؟

أعاد الرجل النظر للأفق وقال:

«لا يهم ذلك الآن المهم أنك اجتزته والآن حان وقت عودتك من حيث أتيت لكن عندي طلب بسيط»

فقلت له: ماذا تريد؟

فقال كلامًا لم أفهم كثيرًا منه لكني أظن أني فهمت مجمله.. قال:

«عالمنا قد يبدو متوحشًا وفوضويًا لكم لكنه يسير بنظام دقيق وهدف واضح وصريح وإلى أجل محتوم وكلنا يجب أن نسير وفق هذا الخط

المرسوم لنا وبيننا وأنت تجاوزت هذا الخط رغماً عنك ونحن كذلك وحان الوقت كي تعود الأمور لنصابها وهذه المرة لن يكون لك خيار في القبول أو الرفض»

ثم أدار رأسه ناحيتي مرة أخرى وهو يبتسم وقال:

«و أرجو ألا ترغمني على إجبارك..»

فقلت له: لا أظن أني أملك حق الرفض؟

فضحك الرجل الأنيق ثم وقف على قدميه ونفض تراب الشاطئ من على ملابسه ومد يده وهو مبتسم وقال:

هيا قم كي لا تتأخر يا ابن آدم !

أمسكت بيده وشدني للأعلى وقال:

اتبعني..

مشى الرجل بمحاذاة الساحل ومشيت خلفه حتى وصلنا لصخرة كبيرة كان نصفها على اليابس ونصفها الآخر داخل البحر وطلب مني الصعود عليها ففعلت. نادى الرجل الأطفال الذين كانوا معه من وسط الجزيرة وقال:

«هيا يا أولاد حان وقت الرحيل»

خرج الأطفال البشعون من الغابة وكان عددهم ستة وتجمعوا حوله يضحكون ويقفزون وفي لحظة رفع الرجل ذراعه للسماء وبدأ يتمتم

فتحول الأطفال لشياطين ضخمة أكثر بشاعة من أشكالهم وهم صغار ما عدا واحدًا منهم فقد تحول لرجل بهيئة بشرية. همس الرجل الأنيق في أذن الطفل الذي تحول لرجل فهز ذلك الرجل رأسه بالموافقة ثم ركب على ظهر أحد العمالقة الخمسة والذي بدوره حملني بيده الضخمة ووضعني على ظهره بجانب ذلك الرجل وخلال ثوانٍ كنا جميعًا نحلق في السماء. حلقنا مبتعدين عن الجزيرة وعن الرجل الأنيق تاركيه يلوح بيده من على ساحل الجزيرة وهو يبتسم.

رحلتي على ظهر العملاق

بصحبة الرجل المجهول

كنا نطير فوق بحر واسع وكان العملاق الذي حملني مع الرجل يتوسط الأربعة العمالقة الآخرين وكنت مذهولًا من هذا المنظر الذي لم أرَ مثله في حياتي. دنا الرجل بالقرب مني وأنا أنظر للأسفل في محاولة مني لاستيعاب ما يحدث ومد يده لمصافحتي وعرف بنفسه وقال:

«أنا (قرمز)»

صافحته ولم أتكلم معه. ابتسم الرجل ثم أكمل حديثه معي بسرد بعض الأحداث العشوائية والتي على ما أظن كان يريد قولها لي لغرض معين قبل وصولنا لوجهتنا.. قال:

«عندما قدم (جسار) للجزيرة وتوسل أبي أن يبقيك عليها لم يرد أبي له طلبه لأن (جسار) قدم لنا خدمات كثيرة وقدم لمملكتنا تضحيات لن تنساها له لذلك وافق أبي بشرط ألا تدخل في وسط الجزيرة فوافق (جسار) على ذلك الشرط لكن عندما غدرت (جند) بـ(جسار) والذي كان في حماية أبي قرر أبي إزالة (جند) من خارطة الشياطين خاصة بعد

تقديمها رأس (جسار) كعربون مهادنة ل (دشار) وجماعته من الأقران المؤمنين بالإضافة إلى أنها وشت بالأقران السبعة الذين عاهدوك على الولاء مما دفع (دشار) بالتعاون مع (جند) لقتلهم جميعًا. سكت (قرمز) قليلًا ثم قال:

«اسأل ما تريد فأنا أرى الكثير من الأسئلة تدور في عينيك»

قلت له: كيف خان أتباع (جسار) قائدهم بهذه السهولة؟

قال: انقسم الجيش إلى قسمين بعد مقتل (جسار) ثلث منهم كان معه ومعارضًا لما حدث من انقلاب وثلثان كانوا مع (جند) لأن الشياطين تتبع الأقوى ومبدأ الولاء ليس من أولوياتها أو من اهتماماتها فهم أشبه بالمرتزقة ويتبعون من غلب.

قلت له: وهل دارت حرب بين الطرفين؟

قال: نعم وقد شارك (دشار) مع (جند) بجيشه وأعطى بذلك الغلبة لـ(جند) في سحق معارضيها.

فقلت له: وهل نسي (دشار) ثأره مني؟

فابتسم وقال: (جند) قتلت (دشار) بعد نصرها الساحق على حلفاء أخيها بلحظات وأخضعت جيشه بالقوة بعد ما فر منه من فر.

سكت قليلًا ثم قلت: وإلى أين نحن ذاهبون الآن؟

فابتسم وقال: لإحضار رأس (جند) لأبي ولكي نعيدك لوطنك سالمًا.

فنظرت له باستغراب وقلت له: بكل بساطة؟

فقال والابتسامة ما زالت على وجهه:

أنت لا تعرف أبي عندما يتضايق قليلًا..

سكت لبرهة ثم قلت: ومن هو أبوك؟

فقاطعني ليقف ويقول:

لقد وصلنا.. ؟

فوقفت معه ورأيت جبال أطلس في الأفق ورأيت الرجل يشير للعمالقة الأربعة بالتوجه نحو الكهف الذي به عرش (جند).

هذا المارد من ذاك الشيطان

نزل العملاق الذي كان يحملنا بالقرب من الكهف الذي كان به عرش مملكة «الكثبان» وتوجه العمالقة الأربعة ووقفوا بجوار الكهف ثم أشار لي (قرمز) وهو مبتسم قائلًا:

لندخل وننتهِ من هذا الأمر بسرعة..

دخلت معه الكهف وكانت (جند) جالسة على العرش وحولها مجموعة من حراسها الأقوياء وعندما رأتني صرخت بقوة اهتز لها الكهف وقالت:

«اقتلوا ذلك المدون السافل الآن!!»

فاندفع الحراس نحوي بسرعة رهيبة لكنهم لم يلحقوا أن يمسوا شعرة مني لأن (قرمز) وبحركة من إصبعه أطاح برؤوسهم جميعًا دفعة واحدة. نظرت (جند) لـ(قرمز) بغضب واحتقار وهي تقول:

من أنت أيها السافل وكيف تجرؤ على الدخول إلى هنا؟!

وكان (قرمز) خلال حديث (جند) يتفحص المكان مديرًا ظهره لـها وينظر إلي وهو مبتسم ويقول:

كنت أظن المكان أكثر فخامة من ذلك..

فصرخت (جند) وقالت:

ألا تعرف أنا من وابنة من؟!!

فالتفت (قرمز) نحوها وذهبت الابتسامة من على وجهه وقال بنبرة هادئة لكن صارمة:

بل أنتِ من لا تعرفين أنا من وابن من..

وفي لحظة اشتعلت (جند) وتحولت لرماد..

عادت الابتسامة على وجه (قرمز) وأنا كنت على وشك الإغماء من هول ما رأيت، اقترب مني ووضع يده على كتفي وقال:

حان وقت الرحيل يا(خوف)..

قلت له بهدوء: هل انتهى كابوسي؟

فقال وهو يبتسم: هل بقي أحد يريد النيل منك؟

فقلت وأنا أنظر لرماد (جند): لا أعتقد

فضحك (قرمز) ضحكة خفيفة وقال:

لنخرج إذًا من هذا المكان الكئيب.

خرجنا من الكهف وكانت كل قبيلة «الكثبان» مجتمعة فخطب فيهم (قرمز) وهو يقف بين العمالقة الخمسة وقال:

«تفرقوا أيها «الكثبان» فقد حكم عليكم أبونا بأن تصبحوا شياطين سفلية إلى الأبد وكل من له لقب سينزع منه»

وفي لحظة وبدون جدال أو أدنى مقاومة اختفى جميع الشياطين والأقران من أمام (قرمز)..

قال لي (قرمز) وهو يمتطي ذلك العملاق الذي أحضرنا إلى جبال أطلس:

«لا تخبر إنسيًّا بما حدث معك يا (خوف) فلن يصدقك أحد لكن لن نمنعك من ذكر ما حدث لأننا واثقون من تجاهل الناس لما سوف تقوله»

فقلت له: وكيف تعرف أنهم سيتجاهلونني؟

قال: لست الأول وبالتأكيد لن تكون الأخير..

فقلت: وما الذي حدث معي بالضبط؟

فضحك (قرمز) بصوت مرتفع وقال:

وداعًا يا(خوف) ستكون في فراشك بعد ما تنام.. !

رحل (قرمز) مع العمالقة الخمسة وبقيت أراقبهم حتى اختفوا من الأفق. جلست على قمة الجبل حتى غلبني النعاس ونمت. استيقظت في غرفتي.. لم أنهض من سريري.. دمعت عيني.. ابتسمت شفتاي وقلت في نفسي:

«الحمد لله».

الخاتمة

لا أعرف ماذا أقول أو بماذا أختم جزءًا لم أتيقن بعد من انتهاء أحداثه من حياتي أو حتى حدوثه من الأساس فالخاتمة الطبيعية من وجهة نظري لمثل ما مررت به هو شهادة وفاتي. الأحداث بالنسبة لي مستمرة وإن خلت من السحرة والشياطين فأنا كنت وما زلت أخوض حربًا أشد ضراوة من التي خضتها مع العالم الآخر وهي المعركة الفكرية مع العالم الذي يجب أن أعيش معه اليوم وغدًا. المجتمع اليوم لا يقبل أي فكر جديد ولا يتعامل معه أو حتى مجرد النظر من زاوية مختلفة لأمور يرى أنها من المسلمات. التغير بالنسبة لي أمر طبيعي وضروري لأي تطور في أي مجال لكن البعض يتعامل مع التغير كخروج وانقلاب على مسلمات لا تتعدى كونها أعرافًا تكتسب قداسة كلما تقدمت في العمر. لذلك لست حريصًا على الإقناع أو الدفاع عن أفكاري كثيرًا لأنها ستجد مكانها يومًا من الأيام بين الحقائق المثبتة ومع مرور الوقت ستكون ضمن التاريخ. هناك من يصفني بالمتحرر وهذا إقرار من الواصف بأني كنت مستعبدًا لشيء ما زال هو عبدًا له، وهناك من يرى أن في أفكاري

خطرًا كبيرًا على الجيل الصاعد وكأن هذا الجيل خلق ليصعد على سلم مبادئه فقط. حرية التفكير جزء لا يتجزأ من حرية التعبير لذلك كانت هذه «الرواية» ضمن مجموعة الخيال العلمي فهي بذلك ستكسب قبولًا أكثر كونها مصنفة كمجرد أضغاث أفكار. ما زلت مؤمنًا بحرية التفكير وحرية الاختيار ومن يخشى على عقله من أفكاري ويحاربها فقط لكونها مختلفة عن ما يؤمن به فقد خاف على هشاشة طرحه من الانكسار وخلو مدرجاته من الذين لم تعد تغريهم تجارة الموت مقابل الحياة الأبدية. عندما يخسر المنطق والعقل مواجهته أمام الخوف يبقى العقل أسيرًا للمعتقد أو العرف السائد ويبقى التغيير كالجنين المتنحي لا يظهر إلا عندما تكون الظروف مناسبة ولا يمكن في الغالب التنبؤ بموعد هذا الظهور. أنا من مجتمع يرى أن أجمل ابتسامة لي يجب أن تكون عندما أموت وأجمل دمعة هي عندما أكون خائفًا لذلك سأعانق الخوف مبتسمًا على أمل أن أموت كما ولدت.. خوف